الفصل الثالث

مفهوم الأسطورة

فى

القرآن الكريم

القرآن حمال أوجه

روى عن علىّ بن أبى طالب — كرم الله وجهه - أنه قال لابن عباس ﷺ - حين أرسله لمناظرة الخوارج -: " لا تجادلهم بالقرآن، فإنه حمال أوجه، وجادلهم بالسنة "، وعلى الرغم من شهرة هذه الرواية لورودها فى أكثر من مرجع، إلا أن بعض الباحثين جعله من كلام ابن عباس لعلى، وليس من كلام على لابن عباس، والبعض الآخر شكك فى هذه الرواية، بحجة أنه "لم يقف على سند يوثق به فى نسبة العبارة المذكورة.... إلى على بن أبى طالب، فقال: تمسك بعض الناس بالكلمة التى رويت عن الإمام على — كرم الله وجهه — حين وجه ابن عباس - رضى الله عنهما — لمحاجاة الخوارج، فقال له: لا تجادلهم بالقرآن فإنه حمال أوجه، وخذهم بالسنن، ولا أدرى مدى صحة هذه الكلمة إلى على، فقد بحثت عنها فى مظان كثيرة فلم أجدها [٣٤] رغم اشتهارها، لكن الشهرة ليست دليل الصحة. ولقد اتخذ بعض الناس من كلمة أمير المؤمنين على تكأة، يعتمدون عليها فى دعوى عريضة: أن القرآن يحتمل تفسيرات مختلفة، وأفهاماً متباينة، بحيث يمكن أن يحتج به على الشيء وضده، ولو صح ما ادعوه على القرآن الكريم، لم يكن هناك معنى لاجتماع الأمة [٣٥] بكل طوائفها

---

٣٤) بل وجدت فى أكثر من مرجع، فقد عزاها السيوطى لابن سعد فى الطبقات، حيث قال: أخرج ابن سعد عن عكرمة، قال: سمعت ابن عباس يحدث عن الخوارج الذين أنكروا الحكومة، فاعتزلوا على بن أبى طالب، قال: فاعتزل منهم اثنا عشر ألفاً، فدعانى على، فقال: اذهب إليهم فخاصمهم، وادعهم إلى الكتاب والسنة، ولا تحاجهم بالقرآن، فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة، وأخرج ابن سعد، عن عمران بن مناح قال: فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين ! أنا أعلم بكتاب الله منهم، فى بيوتنا نزل، فقال: صدقت، ولكن القرآن ذو وجوه، يقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنة.....

٣٥) اجتمعوا على النص، واختلفوا فى تفسير كثير من آياته.

على أن القرآن هو المصدر الأول للإسلام، عقيدة وشريعة، ولم يكن هناك معنى لوصف الله تعالى القرآن بأنه نور وكتاب مبين [٣٦].....

وأرى أن هذا الكلام فيه نظر، ذلك أن القرآن الكريم هو المرجع الأساسى لتنظيم حياة الناس فى جميع مناطق الكرة الأرضية، وهو صالح لكل الأقطار والعصور، فلو فرضنا أن له معنى واحداً لكان ذلك موافقاً لنظام معين من أنظمة الحياة، ولم يكن صالحاً لكل العصور، فنظم الحياة على الكرة الأرضية مختلفة ومتباينة، فنظام الحياة فى أوربا وأمريكا يختلف عنه فى القارة الإفريقية، وأسلوب الناس فى حياتهم فى آسيا يختلف عن مثيله فى القارات الأخرى، كما أن الحياة بكل أشكالها تتطور وتتجد باستمرار، فأنّى لنص معين المعنى يمكن أن يطبق على كل هذه الأشكال المختلفة مكاناً وزماناً، كذلك لو كان المعنى واحداً لما كان هناك هذا الكم الهائل من الآراء الفقهية المختلفة، ولهذا لاينبغى أن يفهم من أن اختلاف معنى كثير من نصوص القرآن الكريم يقدح فيه، بل بالعكس، هو ميزة تميزت بها عن كل النصوص الدينية السابقة - واللاحقة أيضاً، لو فرض أن هناك نص مستجد فى المجال الدينى فى أى بقعة من بقاع الأرض -، فقد جاءت النصوص الدينية الأخرى قاطعة فى معنى واحد، ولهذا فقدت صلاحيتها لكل الناس، وعجزت عن تلبية مطالب الحياة المتجددة والمتطورة فى كل بقاع الأرض.

أما الإسلام، فهو بمعانية المختلفة لكثير من نصوصه المقدسة — الواردة فى القرآن الكريم — صالح لكل المجتمعات الإنسانية، إذ يطبق كل مجتمع المعنى الذى يناسبه، ويطبق من الآراء - المعتمدة على اختلاف المعنى — ما يصلح، ويناسب

---

٣٦) فاختلاف التفاسير نور وهداية لكل البشر فى جميع الأقطار والعصور، أما التفسير الواحد فهو نور وهداية لقوم بعينهم وزمان محدد.

ظروفه، فلو رجعنا إلى ما بيناه سابقاً من اختلاف المعنى فى النصوص التى تحدثت عن أحداث وقعت فى سابق العصور، لتبين لنا أن النص الذى يحتمل معانى متعددة تصلح لمخاطبة العامة، وتقنع الفلاسفة والمفكرين، وتلبى الاحتياجات المختلفة والمتعددة فى المجتمعات الإنسانية، على اختلاف مناطقها الجغرافية، وتنوع ثقافاتها، وتعدد درجات حضاراتها، لا يقدر على صياغته أحد من البشر، مهما بلغت درجة ثقافته وفكره، إذ لا يقدر على ذلك إلا العليم بأحوال البشر جميعاً، والملم بما سيحدث لها من التطور والتجديد، وهو الله ﷻ.

وسوف نبين جانباً من ذلك فى الأمثلة الآتية.

هدف الأسطورة فى القرآن الكريم

وردت الأساطير فى النصوص الدينية لمقدسة لجميع الأديان...حتى الإسلام، إلا أن مايفهمه عامة الناس ومتوسطى الثقافة مما ورد فى القرآن الكريم على أنه أسطورة — وهذا عنصر حتمت وجوده توجيه الرسالة لجميع الطوائف المختلفة فى الفكر والثقافة كما بينا ذلك سابقاً — يستطيع الفيلسوف وأرباب الفكر والمعرفة أن يستخرجوا منه قواعد منهجية أعلى درجة من الجانب العلمى والفلسفى؛ فبعض نصوص القرآن الكريم التى يفهم من ظاهرها أنها أسطورة، حتمتها طبيعة الشعوب لجذبهم إلى التعاليم الدينية، هى فى الوقت نفسه تعطى للفلاسفة والعلماء إشارة إلى ما يجب عليهم أن يلتزموه فى بحوثهم العلمية، فهى تعتبر كنوزاً علمية أعلى درجة من البحث العلمى، يستخرجها ويستنبطها العلماء على مر العصور والأزمان، فعلى سبيل المثال:

الخضر

يقول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ

مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف: ٦٠ - ٨٢]

نسج الفكر الإسلامى حول هذه القصة خيوطاً من خيالات لا أصل لها، وأضاف إليها أساطير لم يشر إليها القرآن الكريم أدنى إشارة، نلخصها فيما يلى:

١. اختلفوا فى اسم هذا العبد الصالح، واسم أبيه، فقالوا: إن اسمه: بليا بن

ملكان بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح، وذكروا له كنيتان، الأولى: أبو محمد، والثانية: أبو العباس، أما لقب: الخضر، - واختلفوا فى سبب إطلاق هذا اللقب عليه -، فقيل: إنه جلس على فروة بيضاء فصارت خضراء، وقيل: إنه مَرَّ بأرض بيضاء، فإذا هى تهتز خضراء من خلفه، وقيل: سمى خضراً لحسنه وإشراق وجهه. واختلفوا فى اسم أبيه فقيل: إنه ابن آدم لصلبه، وقيل: إنه ابن فرعون، وقيل: ابن العيص، وقيل: ابن كلبان.

٢. ذكروا روايات عدة حول نشأته، من أشهرها: أنه كان من أبناء الملوك، وقد كان رافضاً لفكرة الزواج، التى ألح عليها أبوه فيها، فاضطر للموافقة، فكان زواجه صورياً، ولما أصر والده على زواج فعلى، ترك القصر وولى بعيداً. وقد ظهر فى أماكن مختلفة، وقام بعجائب كثيرة، وظهرت نبوته على الملأ فى مواقع مختلفة. لكن المفسرين والعلماء يختلفون فى مصيره، فمنهم من يقول: إنه مات من زمن طويل. ومنهم — وهم غالبية علماء الأمة وكثير من مشايخ الصوفية — من يذهب إلى أنه لايزال على قيد الحياة إلى يومنا هذا، وأنه لم يمت فما زال يعيش بيننا، وقد شاهده الكثير من علماء وأبناء الأمة الإسلامية، ولهم فى هذا الأمر روايات، بأنه قابل فلاناً، وألبس فلاناً خرقة، وأعطى فلاناً عهداً....إلى آخر ما يقصون وينسجون من أقاويل ما أنزل الله بها من سلطان.[٣٧]

---

٣٧) يقول ابن القيم فى كتابه " المنار المنيف فى الحديث الصحيح والضعيف ": إن كل " الأحاديث الذى يذكر فيها الخضر وحياته.. كذب، ولا يصح فى حياته حديث واحد، فحديث أن رسول الله كان فى المسجد، فسمع كلاماً من وراءه، فذهبوا ينظرون فإذا هو الخضر. وحديث: يلتقى الخضر وإلياس كل عام. وحديث:

٣. ذكر ابن كثير أسطورة أخرى حول هذه القصة تتعلق بالحوت: "....
فرجع موسى حتى أتى الصخرة، فوجد الحوت، فجعل الحوت يضرب
فى البحر ويتبعه موسى، وجعل موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء
يتبع الحوت، وجعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس عنه الماء
حتى يكون صخرة، فجعل نبى الله يعجب من ذلك حتى انتهى به
الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر فلقى به الخضر....." [٣٨]

بل إن الثعالبى روى لنا فى هذا الصدد قصة لايقبلها العقل، ولا تستقيم مع

يجتمع بعرفة جبريل وميكائيل والخضر. وسئل إبراهيم الحربى عن تعمير الخضر، وأنه باقٍ، فقال: ما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان. وسئل الإمام البخارى عن الخضر وإلياس، هل هما أحياء؟ فقال: كيف يكون هذا؟ وقد قال النبى ﷺ: " لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد " (رواه الشيخان)، وسئل عن ذلك كثير غيرهما من الأئمة، فقالوا – مستدلين بالقرآن –: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وسئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال: لو كان الخضر حياً لوجب عليه أن يأتى النبى ﷺ، ويجاهد بين يديه، ويتعلم منه، وقد قال النبى ﷺ يوم بدر: " اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض "، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، فأين كان الخضر حينئذ؟

فالقرآن، والسنة، وكلام المحققين من علماء الأمة ينفى حياة الخضر كما يقولون:

فالقرآن يقول: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾، فالخضر إن كان بشراً فلن يكون خالداً، حيث ينفى ذلك القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ فإنه لو كان موجوداً لجاء إلى النبى ﷺ، فقد قال عليه الصلاة والسلام: والله لو أن موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى " (رواه أحمد عن جابر بن عبد الله)، فإن كان الخضر نبياً، فليس هو بالفضل من موسى، وإن كان ولياً، فليس أفضل من أبى بكر. وما الحكمة فى أن يبقى طيلة هذه المدة – كما يزعم الزاعمون – فى الفلوات والقفار والجبال؟ ما الفائدة من هذا؟ ليس هناك فائدة شرعية، ولا عقلية من وراء هذا. إنما يميل الناس دائماً إلى الغرائب والعجائب والقصص والأساطير، ويصورونها تصويراً من عند أنفسهم ومن صنع خيالهم، ثم يضفون عليها ثوباً دينياً، ويروج هذا بين بعض السذج، ويزعمون أن هذا من دينهم، ولكن ليس هذا من الدين فى شيء...فالحكايات التى تحكى عن الخضر إنما هى من مخترعات ما أنزل الله بها من سلطان.

٣٨) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم جـ ٤ صـ ٤٠٩

المنطق السليم، لم أسردها فى النص تخفيفاً على القارئ، وذكرتها كاملة فى الهامش، لأعطى لمن يقرأها صورة واضحة عن مدى تغلغل الأسطورة فى الفكر الإسلامى مستنداً إلى إشارات فى القرآن الكريم لا تمت إلى الأسطورة بصلة.[٣٩]

---

٣٩) جاءت هذه الأسطورة تحت عنوان: " فصل فى بدء أمر الخضر عليه السلام ": يروى أن رسول الله ﷺ لما أسرى به إلى السماء، بينما هو على البراق، وجبريل يمر به، إذ وجد رائحة طيبة، فقال: ياجبريل ! ما هذه الرائحة الطيبة؟ قال: إنه كان ملك فى الزمان الأول، له سيرة حسنة فى أهل مملكته، وكان له ابن، ولم يكن له ولد غيره. قال أصحاب الأخبار: وكان أبوه ملكاً عظيماً، فسلمه إلى المؤدب ليؤدبه، وكان يختلف إليه، وكان بين منزله ومؤدبه رجل عابد كان بمربه، فأعجبه حاله فألفه، وكان يجلس عنده والمعلم يظن أنه فى المنزل، وأبوه يظن أنه عند المعلم، حتى شب ونشأ وأخذ من اعابد شمائله وعبادته، فقالوا لأبيه: ليس لك ولد غيره يرث ملكك، فلو زوَّجته لعله يرزق أولاداً، فعرض عليه التزويج فأبى، ثم عاوده فرضى، فزوَّجه جارية من بنات الملوك فزفت إليه. فلما بقيت عنده قال لها: إن مخبرك بأمر، إن أنت سمعتيه صرف الله عنك شر الدنيا وعذاب الآخرة، وإن أفشيت سرى عذبك الله فى الدنيا والآخرة. قالت: وما ذاك؟ قال: إنى رجل مسلم لست على دين أبى، وليست النساء من حاجتى، فإن رضيت أن تقيمى معى على ذلك، وتتابعينى على دينى فذاك إليك، وإن أبيت لحقت بأهلك، فقالت المرأة: بل أقيم معك. فلما أتت عليها مدة، قالوا لأبيه: ما نظن إلا ابنك عاقراً لا يولد له ولد، فسأله أبوه، فقال: ماذلك بيدى، وإنما ذلك بيد الله يؤتيه من يشاء، فدعا المرأة وسألها فردت عليه مثل ما رد عليه الخضر، فمكث أبوه زماناً، ثم دعا ابنه إليه، فقال له: أحب أن تطلق امرأتك هذه، وأزوجك امرأة غيرها ولوداً، ربما ترزق منها ولداً، فكره ذلك الخضر، وألح عليه أبوه حتى فرق بينهما وزوَّجه امرأة غيرها ولوداً ثيباً، فعرض عليها الخضر مقالته الأولى، فرضيت، وقالت: أقيم معك، فلبث زماناً، ثم إن أباه استبطأ الولد منه، فدعاه وقال له: ليس يولد لك؟ فقال: ليس ذلك بيدى، ولكنه بيد الله، ثم إنه دعا امرأته وقال لها: أنت امرأة شابة ولود، وقد كنت ولدت عند غير ابنى، ولست تلدين عند ابنى، فقالت: ما مسنى منذ صحبته، وكذلك المرأة الأولى، فدعاها وسألها، فقالت: مثل ذلك، فدعا ابنه وعيره وعنفه، ففزع من أبيه ولم يأمن على نفسه منه، فخرج من عنده: فهام على وجهه، ولم يدر أحد من خلق الله تعالى، أين توجه، فندم أبوه على مافعل، فأرسل فى طلبه مائة رجل من طرق شتى مختلفة، فانطلقوا فى طلبه، فأدركه منهم عشرة فى جزيرة من جزائر البحر. فقال لهم: إنى أقول لكم شيئاً واحداً فاكتموه عنى. فإن كتمتموه صرف الله عليكم شر الدنيا وعذاب الآخرة، وإن أبيتم ذلك وأفشيتم سرى عذبكم الله فى الدنيا والآخرة، قالوا له: قل ما شئت، قال: هل بعث أبى فى طلبى أحداً غيركم؟ قالوا: نعم، فقال لهم: إذاً فاكتموا أمرى ولا تخبروا أبى أنكم رأيتمونى، وقولوا مثل قول نظائركم الذين أرسلهم فى طلبى فلم يرونى، لأنكم إن أخبرتموه بى أو ذهبتم بى إليه قتلنى وصرتم أنتم مؤاخذين بدمى. قال: فخلّوا عنه وانصرفوا. فلما دخلوا على أبيه قال تسعة منهم: قد

وجدناه وقال لنا كيت وكيت فخلينا عنه. وقال العاشر: ما لنا به علم ومالى به خبر، والتسعة قالوا: بل ظفرنا به وإن شئت أتيناك به، فقال لهم: ارجعوا فى طلبه وأتونى به، وإن الخضر خاف أن يظفروا به، فانحاز من ذلك الموضع إلى موضع آخر، فأتوا إليه فلم يجدوه، فرجعوا وقالوا: لم نره، فقتلهم أبوه. قال: وإن أباه دعا بالمرأة الثيب وقال لها: أنت صنعت هذا بابنى حتى هرب فقتلها، وسمعت المرأة الأولى بذلك فهربت مخافة القتل، وقال العاشر الذى أنكر رؤيا الخضر: ما يؤمنى أن يقتلنى كما قتل التسعة، فهرب حتى أتى قرية، فإذا المرأة الهاربة أيضاً فى تلك القرية فكانت تحتطب، فقالت يوماً: باسم الله، فسمعها الرجل الهارب، فقال لها: من أنت؟ فأخبرته خبرها، فقال: ياهذه أنا العاشر، خرجت خوف القتل، فهل لك أن أتزوجك ونعبد الله حتى نموت؟ فقالت: نعم، ثم إنهما انطلقا حتى أتيا قرية فيها بعض من الفراعنة، فاتخذا بيتاً من قصب، ومكثا فيه، ورزقا فيه بثلاثة أولاد، فقال لها الرجل: إذا أنا مت فادفنينى فى هذا البيت، وكذلك كل من مات منكم، فإنى لا أحب أن تكون قبورنا مع هؤلاء، فإذا كان آخرنا موتاً يوصى أن يهدم البيت، فمات الرجل فدفنته امرأته، ثم إنه بلغ فرعون زمانهم أنهم يوحدون الله ويعبدونه، فجيء بالمرأة إلى حضرته، فأمرها أن ترجع عن دينها فأبت، فأمر بقدر من نحاس فملئت ماء وأغلى غلياناً شديداً، وأمر بالمرأة وولدها، فلما أحضروا قال لها: إرجعى عن دينك، وإلا ألقيتك أنت وأولادك فى هذا القدر، فأبت عليه، فأمر بولدها الأكبر فألقى فيه، فتفسخ فيه، وكذلك الثانى، وكان فى حجرها ابن رضيع فأرادوا إلقاءه، فرقت المرأة ونازعتهم فى شأنه، فتكلم الغلام الرضيع وقال لها: إصبرى فإنا جميعاً فى الجنة، فلما أرادوا أن يلقوها فى القدر قالت لهم: لى إليكم حاجة يسيرة، قالوا: وما هى؟ قالت: إذا رميتمونى فى القدر فادفنوها بما فيها من عظامنا فى بيتنا واهدموه علينا، ففعلوا ذلك، فلما أُسْرِى برسول الله ﷺ وجد رائحة طيبة، فقال: ما هذا يا جبريل؟ فأخبره بقصتهم وقال: هذه رائحتهم. ويروى أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ: إن قوماً من أهل تلك المدينة ركبوا البحر فى تجارتهم، فضربتهم الأمواج فتكسرت بهم سفينتهم، فانفلت منهم رجلان على ألواح من ألواحها، فضربتهما الأمواج حتى أسندتهما إلى جزيرة من جزائر البحر، فخرجا يجولان فى الجزيرة، فإذا هما بالخضر عليه السلام وعليه ثياب بيض وهو قائم يصلى، فجلسا حتى فرغ من صلاته، فالتفت إليهما وقال لهما: من أنتما؟ قالا: نحن من مدينة كذا وكذا، خرجن فى البحر لطلب التجارة، فانكسرت بنا هذه السفينة ودفعنا إلى هذه الجزيرة، قال: اختارا! إن شئتما أن تقيما فى هذا الموضع تعبدان الله وتأتيكما أرزاقكما، وإن شئتما أردكما إلى منازلكما؛ قالا: بل تردنا إلى منازلنا، فقال لهما: على أن تعطيانى عهد الله وميثاقه على أنكما لا تخبران بشيء مما تريانه، فأعطياه العهد والميثاق على الكتمان، فنظر فإذا سحائب تمر، فدعاهن وسألهن، فقالت كل واحدة منهن: أريد بلد كذا وكذا، فدعا التى تريد بلادهما فقال لها: إحملى هذين حتى تضعيهما على سطحيهما، فعزم أحدهما على الكتمان ونزل إلى منزله، وعزم الآخر على إذاعته فنزل من سطحه وخرج من بابه وانطلق إلى باب المدينة، ونادى: النصيحة، فأدخل على الملك، فقال له: ما نصيحتك؟ فقال: رأيت ابنك فى موضع كذا وكذا وصنع بى كذا وكذا، فقال له: من يعلم ذلك؟ قال: فلان كان رفيقى، فبعث إليه وسأله عما قال، فقال: أما ركوب

البحر فقد ركبنا جميعاً، وقد انكسرت بنا السفينة، وصرنا على لوح من ألواحها، فلم تزل الأمواج تضربنا حتى صرنا إلى الساحل، فخرجنا من البحر، فلم نزل نعيش من الشجر ونبات الأرض والثمر، ترفعنا أرض وتضعنا أخرى حتى انتهينا إلى منازلنا، فقال له الغادر: إبعث معي رسلك حتى أدفعه إليك وتعلم أن هذا قد كذب، فأمر بالرجل الكاتم فحبس، وتوعده بالصلب إن وفى صاحبه بما قال، وأوعد الغادر بالصلب إن كذب ولم يأت به، فبعث معه رسلاً فركبوا البحر حتى انتهوا إلى الجزيرة، فطلبوا الخضر فلم يجدوا شيئاً، فرجعوا بالرجل إلى الملك وقالوا له: هذا أكذب خلق الله. ما رأينا مما قال شيئاً، فصلبه وخلى عن الآخر، ثم إن أهل تلك المدينة لم يزالوا يعملون المعاصي حتى غضب الله عليهم. قال جبريل عليه السلام: فبعثني الله تعالى إليهم، فأدخلت جناحي تحتها واقتلعتها، فرفعتها حتى سمع أهل سماء الدنيا نباح الكلاب وصياح الديوك، ثم أمرني فألقيتها، فجاءت هوى بمن فيها حتى انتهيت إلى وجه الأرض، فبقي بيت الرجل الكاتم والمرأة الكائمة من جانب سالمين، ثم انطبقت الأرض بمن فيها، فلم ينج منهم غيرهما، فجعلا يدوران في حدود المدينة فلا يلقى كل واحد منهما غير صاحبه، فلما أن كثر ذلك، قال الرجل: أيتها المرأة! قد رأيت ما أصاب القوم، وإنه لم يفلت غيري وغيرك، فبأي شيء نجونا؟ فأخبريني وأنا أخبرك، فعاهد كل واحد منهما صاحبه على الكتمان فتصادقا، فإذا قصتهما واحدة وإنما نجاهما الكتمان، فقال لها: هل لك أن تزوجيني نفسك ونخرج إلى مدينة من هذه المدائن فأكتسب عليك وتكتسبين عليَّ حتى يقضي الله من أمرنا ما يشاء؟ ففعلت، فذهبا إلى مدينة فرعون من القراعنة، فاتخذا لهما بيتاً وولدا لهما أولاداً، وتلطفت المرأة لآل فرعون وصارت ماشطة لهم فحظيت عندهم، فبينما هي ذات يوم قاعدة تُسرِّح رأس بنت الملك إذ سقط المشط من يدها. فقالت: باسم الله، تعس من كفر بالله، ففزعت الجارية من ذلك وقالت لها: مَن الله؟ قالت: ربي، فقالت لها: أوَ إن لك رباً غير أبي؟ فقالت: نعم، هو ربي ورب أبيك ورب كل شيء، فهبطت الجارية ودخلت على أبيها وقالت: تعلم أن فلانة تقول قولاً عجيباً، تقول كذا وكذا، فأرسل إليها فحضرت، فقال لها: ماهذا الذي بلغني عنك؟ فقالت: هو ما بلغك، فهل أحد يقول بقولك؟ قالت: بعلي وصبيي، فبعث إليهم وامتحنهم، فإذا هم يقولون قولاً واحداً، فقال لهم: إنا لا نقركم على ما أنتم عليه حتى ترجعوا إلى ديننا، فقالوا له: إصنع ما أنت صانع، فأمر بقدر من نحاس عظيمة، فملئت ماء، ثم أشعل تحتها حتى اضطرب الماء، ثم دعا بالصبية فعرض عليهم واحداً واحداً ليكفروا، فأبوا أن يكفروا، فأخذهم وطرحهم في القدر، ثم إنه دعا بالزوج وعرض عليه الكفر فأبى، فألقاه في القدر، ثم دعا بالمرأة وقال لها: إن لك علينا حقاً، فإن أنت رجعت إلى ديننا وإلا ألقيناك في القدر، فقالت له: إصنع ما أنت صانع، ثم إنها قالت له: لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قالت: إذا صنعت ما أنت صانع، فمر ببيتنا أن يحفر فيه حفرة، ثم تأمر بالقدر فتحمل بما فيه، ثم يأتون به منزلنا، فيسكب ما في القدر في الحفرة، ثم يعاد علينا التراب، ثم يهدم علينا البيت ففعل ذلك، فهذه الرائحة رائحة المسك تسطع من بيتهم إلى يوم القيامة، **فهذه قصة الخضر مع أبيه وبدء أمره** " [الثعالبي صـ ٢٢٠ -٢٢٣]

وهذا كلام يستهوى العامة من الناس، لكن لا يقبله المفكرون، ولا يؤمن بصحته ذووا العقول السليمة، ولهذا لم يرد مثل هذا الكلام فى القرآن الكريم، لأنه كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا الكلام فى حقيقته باطل، لا أصل له، إنما هو خرافات نسجها الفكر الإسلامى ليستولى به على عقول العامة.

١. هوية الحوت العجيبة، فقد ذكروا أنه كان حوتاً ميتاً، إذ يزعمون أنه قيل لموسى عليه السلام: خذ حوتاً ميتاً، فحيث ينفخ فيه الروح من مسه ماء عين يبعث الحياة فى الأموات، تجد رجلاً من عبادنا، وهو — كما يزعمون اسمه الخضر—.

٤. ثم تحدثوا عن كفر الغلام وأسهموا فى الحديث عن كل ماورد فى القصة، سواء كان شخصاً أم مكاناً.

لم يذكر القرآن الكريم شيئاً عن كل مانسجوه من أساطير حول هذه القصة، فإذا كان الأمر كذلك، وإذا لم يكن القصد من سرد هذه الرواية نسج أسطورة، أو الإيحاء بخرافة، **فما هو الهدف من ورودها فى كتاب مقدس أوحى به إلى رسول ليعلمه لمن أرسل إليهم؟**

لو استعرضنا عناصر التقدم والرقى فى المجتمعات الإنسانية، لوجدنا أن من أهم العناصر — إن لم يكن أهمها — التى ترتكز الحضارة عليها، بل تعتبر عمودها الفقرى الذى لا يستقيم بناء المجتمع إلا بها، ولم تنتج البشرية ما نراه اليوم من مظاهر الحياة على جميع المستويات إلا بواسطتها، ولم يتمتع الإنسان بحياة الرفاهية وسهولة الاتصالات إلا بالاعتماد عليها، واتخاذها أساساً لكل ما أنتجته من وسائل قربت المسافات، واختصرت الزمن، وذللت كل العقبات التى تواجهه.

لم يقم ذلك كله إلا على البحث العلمى القائم على أساس كشف المستور فى آفاق الأرض وفجاج الكون، وذلك بالسؤال عن أسباب الظواهر المحيطة بالإنسان، ومحاولة ما يكتنفها من غموض، ويكمن وراءها من دوافع، فقد استقر فى ذهن الباحثين أن الإجابة عن هذه الأسئلة: لِمَ؟، وكيف؟، ولماذا؟، وأين؟، و ماهى الأسباب؟، وما العلة؟، وما العلاقة بين الظواهر؟، وما كنه هذه الظواهر؟.....إلخ، هى مقدمة التقدم، وأساس اكتشاف ما خفى عنا، وبالتالى هى نقطة انطلاق الاكتشافات فى جميع مظاهر الحياة، سواء ما يتعلق منها بالإنسان أم الطبيعة، أم الفضاء الكونى، وما يحيط به من عناصر وأفلاك، وما هو كائن فى باطن الأرض من ثروات: معادن وكنوز مختلفة التكوين والاستخدامات.

ومن هنا فإن التسليم بما يراه الإنسان ويسمعه دون السؤال عما وراءه، وعن أسبابه، هو علامة على الانكماش والتقوقع فى المكان، مما يجعل المجتمع غيرقادر على التقدم خطوة واحدة، ولهذا كان الحكم على ظواهر الأشياء دون البحث – أو السؤال – عما يكمن وراءها، أو محاولة الكشف عن أسبابها خطأً فاحشاً فى مجال البحث العلمى، بل لا يمكن أن يسمى بحثاً إلا بالسؤال عن الأسباب. فالبحث عن أسباب الحوادث والظواهر هو أولى خطوات العلم، وبداية الطريق إلى التقدم فى جميع مجالات الحياة.

ولما كان هذا هو العنصر الأساسى فى بناء الحضارة، والإسلام يحث المسلم على الإسهام فى هذا البناء، فقد نصح المسلم بألا يسلم بظواهر الأشياء ويبنى عليها حكماً، لأنه سوف يكون – فى الغالب – حكماً غير صحيح، وبالتالى يكون عقبة فى سبيل التقدم والرقى؛ فقصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح تشير إلى هذا إشارة واضحة، حيث أن موسى عليه السلام حكم بخطأ العبد الصالح من

ظاهر العمل، فلم يسأل عن السبب، بل اعترض — بناءً على الظاهر — على ما فعله العبد الصالح من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار.

وعليه فقد فهم العامة ومتوسطو الثقافة القصة على وجه أوحى إليهم بنسج أخبار وحكايات — هى فى جوهرها خرافات وأساطير — حول: اسم العبد الصالح، ومن أين جاء، وإلى أين ذهب، كما خاض الخيال فى وصف الحوت والماء الذى يحيى الموتى، وكفر الغلام... وغير ذلك - كما بينا ذلك سابقاً — من أخبار لم يشر القرآن الكريم إلى شيء منه، فهى محض خيال تُسَلِّى شريحة من المجتمع تميل إلى مثل هذه الخرافات والأساطير، وقد تنمى فيهم نوعاً من الإيمان الذى يربطهم بالنصوص المقدسة.

لكن المفكرين والفلاسفة يرون فى هذه القصة جانباً سامياً، وإشارة واضحة إلى ما ينبغى على الإنسان الالتزام به، ألا وهو عدم الحكم على ظواهر الأشياء، بل لابد من معرفة أسبابها، والوقوف على كنهها وعللها حتى يكون ذلك أساساً للتقدم العلمى، وقاعدة متينة للازدهار الحضارى.

وهذا دليل واضح على أن القرآن الكريم كلام الله الذى يعلم تركيب المجتمع البشرى، حيث يحتوى على طبقات يكمن زمام فكرها، ومقود توجيهها والتأثير عليها فى ثنايا القصة التى توحى بالخيالات والصور الأسطورية، كما يوجد فيه — أى المجتمع البشرى — مفكرون وفلاسفة لايشبع نهمهم الفكرى إلا صور غاية فى الدقة العلمية والمضمون المعبر عن قضايا ذات هدف يؤدى إلى الإشباع الفكرى والتقدم الحضارى. ومن هنا جاء التعبير فيه موائماً لكلتا الطبقتين، حيث تنتزع الأولى منه ما يشبع خيالها الأسطورى ويلبى نهمها الخرافى، وفى الوقت نفسه يستنتج منه الفلاسفة قواعد علمية على أعلى درجة من البحث والتنظير الفكرى.

آدم وحواء

لم يرد فى القرآن الكريم تفصيل لكيفية خلق حواء، كما ورد بالنسبة لخلق آدم من: أنه خلق من طين أوصلصال أو من حمإ مسنون....إلى غير ذلك من المواد التى خلق منها، أو تطور خلقه عبرها، بل إنه لم يرد لاسمها ذكر كما ورد فى التوراة، بل أطلق عليها لفظ زوج ، وأنها خلقت من " نفس "، وجاء ذلك فى أربع آيات، وهى:

الأولى: فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١]

الثانية: فى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٩]

الثالثة: فى قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: ٢١]

الرابعة: فى قوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿٦﴾ ﴾ [الزمر: ٦]

قال الرازى: أجمع المسلمون على أن المراد بالنفس الواحدة هو " آدم "، إلا أنه أنث الوصف على لفظ النفس، ونظيره قوله تعالى: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الكهف: ٧٤]، وقال الشاعر:

أبوك خليفة ولدته أخرى * فأنت خليفة ذاك الكمال

فهذا التأنيث على لفظ الخليفة، مثل: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

ما المراد من قوله تعالى: ﴿ زَوْجَهَا ﴾؟

يجيب الرازى: المراد من هذا الزوج، هو حواء، ثم ذكر أنها خلقت من ضلع

آدم [٤٠]، وهو رأى جميع المفسرين القدامى، حيث قالوا: لما أسكن الله تعالى آدم الجنة كان يمشى فيها وحيداً، لم يكن له من يجالسه ويؤانسه، فألقى الله عليه النوم، فأخذ الله ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر، يقال له: القُصَيْرَى، فخلق منه حواء من غير أن أحس آدم بذلك، ولا وجد له ألماً، ولو أُولم آدم بذلك لما عطف رجل على امرأة، ثم ألبسها من لباس الجنة، وزينها بأنواع الزينة، وأجلسها عند رأسه، فلما هب آدم من نومه رآها قاعدة عند رأسه، فقالت الملائكة لآدم يمتحنون علمه: ما هذه يا آدم؟ قال: إمرأة، قالوا: وكان اسمها؟ قال: حواء، قالوا: صدقت، ولم سميت حواء بذلك؟ قال: لأنها خلقت من شيء حى، قالوا: ولماذا خلقها الله تعالى؟ قال: لتسكن إلىَّ وأسكن إليها، وذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، قال النبى ﷺ: " **خُلقت المرأة من ضلَع أعوج، فإن تقيمها تكسرها،وإن تتركها تَسْتَمْتِع على عوجها**" [٤١] وقيل: الحكمة فى أن الرجال يزيدون على مرور الأيام والأعوام حسناً وجمالاً، لأنهم خُلقوا من التراب، والطين يزداد كل يوم حدة وجمالاً. والنساء يزددن على مرور الأيام قبحاً لأنهم خُلقن من اللحم، واللحم يزداد على مرور الأيام فساداً [٤٢]

لم يرد شيء من هذا كله فى الآيات التى تحدثت عن خلق حواء فى القرآن الكريم، بل جاء فى التوراة، حيث ورد فى سفر التكوين أن آدم عندما لم يجد له

---

٤٠) الرازى جـ ٩ صـ ١٣١.

٤١) نص الحديث كما جاء فى المستدرك: " **المرأة خلقت من ضلع أعوج، وأنك إن أقمتها كسرتها، وإن تركتها تعش بها وفيها عوج**". [جـ ٤ صـ ١٩٢ رقم ٧٣٣٤]

٤٢) الثعالبي صـ ٢٩.

معيناً نظير " فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتاً عَلَى آدَمَ فَنَامَ. فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِه وَمَلَأَ مَكَانَهَا لَحْماً. وَبَنَى الرَّبُّ الإِلَهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. فَقَالَ آدَمُ هَذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هَذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنَ امْرِءٍ أُخِذَتْ. لِذَلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَداً وَاحِداً " [٤٣]

يتضح من هذا أنهم نقلوا ما فى التوراة حرفياً، حيث ذكر الطبرى بالنص ما يلى: "..بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم، عن عبد الله بن عباس وغيره أن الله ألقى النوم على آدم، ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه، من شقه الأيسر، ولأم مكانه، وآدم نائم لم يهب من نومته، حتى خلق الله تبارك وتعالى من ضلعه تلك زوجتة حواء، فسوَّاها امرأة، ليسكن إليها، فلما كشف عنه السِّنَة وهبَّ من نومته رآها إلى جنبه، فقال – فيما يزعمون، والله أعلم –: لحمى ودمى وزوجتى، فسكن إليها ". [٤٤]

غير أن الرازى يروى قولاً ثانياً عن أبى مسلم الأصفهانى، ألا وهو: " أن المراد من قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أى من جنسها، وهو كقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [النحل: ٧٢]، وكقوله: ﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقوله: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، إلا أن الرازى استدرك قائلاً: قال القاضى: والقول الأول – وهو خلقها من ضلع آدم – أقوى، لكى يصح قوله: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾، إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداءً، لكان الناس مخلوقين من نفسين، لا من نفس واحدة.

---

٤٣) ٢: ٢١ -٢٤

٤٤) الطبرى: جامع البيان..... جـ ٤ صـ ١٥٠.

ويمكن أن يجاب عنه: بأن كلمة " من " لابتداء الغاية، فلما كان ابتداء التخليق والإيجاد وقع بآدم عليه السلام صح أن يقال: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾، وأيضاً: لما ثبت أنه تعالى قادر على خلق آدم من التراب كان قادراً أيضاً على خلق حواء من التراب، وإذا كان الأمر كذلك، فأى فائدة فى خلقها من ضلع من أضلاع آدم ! " [٤٥]

فماذا قال العلماء فى العصر الحديث فى تفسير " النفس الواحدة "؟

قالوا " ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾، أى من نفس المادة التى خلق منها آدم، خلق منها زوجها. فآدم ليس هو النفس، وإنما هو جاء منها، فكما خُلِق آدم خُلقت حواء، لأن الله تبارك وتعالى يقول موضحاً لهذا الرأى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، فكلمة شيء، إذا كانت موجودة فى أى وقت، أو مكان، يجب أن يكون فيه زوجان: ذكر وأنثى، لأن الخلق مثنى، فحواء خلقت فوراً مع خلق آدم، بدليل الآية السابقة، إذن، فحواء خُلِقَت، إما مع آدم، جنباً إلى جنب، أو بعد تمام خلق آدم، وعلى أى حال، فهى خُلِقَت بنفس الكيفية، ولا داعى لتكرار طريقة خلقها فى القرآن الكريم.

وقيل: إن النفس الواحدة كانت جامعة لأعضاء الذكورة والأنوثة، كالدودة الوحيدة، ثم ارتقت، فصار أفرادها زوجين، فقوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾، هذا إجمال فصله ببيان كونه خلق من تلك النفس زوجاً لها، وجعل

---

٤٥) الرازى جـ ٩ صـ ١٣١

النسل من الزوجين كليهما.[٤٦]

ويقول الشيخ شلتوت:

" إن القرآن الكريم حينما تحدث عن الأصل، الذى تفرع منه الإنسان جعل المرأة شريكة فيه للرجل، ومن مجموعهما تعددت القبائل والشعوب، وانتسبت الأفراد بالبنوة لكل من الرجل والمرأة، وبذلك كان الرجل أباً، وكانت المرأة أماً، واعتبر القرآن الكريم ذلك نعمة على الإنسان توجب عليه الشكر، وتوجب عليه تقوى الله ومراقبته، وتوجب عليه النظرة المستقيمة إلى أخيه الإنسان الذى يشاركه فى معنى الإنسانية، وفى نسبته إلى أصله الذى تكونا منه."

ومعنى هذا أنه لا تفاضل بين المرأة والرجل من جانب الإنسانية، وأن التفاضل إنما يكون بما يكتسبه كلٌّ منهما من الخلال التى ترقى بصاحبه إلى مستوى إنسان أفضل.

ولتوضيح معنى (من نفس) نضرب هذا المثال: قال تبارك وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة: ٢]، فهل يعنى هذا أنه أخذ قطعة منهم فخلق منها محمداً ﷺ؟ كلا، وإنما هو تعبير مجازى، يدل على أنه من طبيعتهم، من جنسهم، من أنفسهم، من نفس الخلقة، بشر مثلكم، لأنكم لستم ملائكة، فلو كنتم ملائكة لأنزل عليكم ملكاً رسولاً.....[٤٧]

يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [السجدة: ٧ - ٨] ظاهر الآية — كما يقول الأصوليون — يدل على أن حواء مخلوقة من طين، وابتداء خلقها — كما خلق زوجها — من طين. قد يعترض على هذا بأنه غير صحيح، لأنه

---

٤٦) رشيد رضا جـ ٤ صـ ٣٣١.

٤٧) www.islam٢all.com

مخالف لما شاع بين أهل الملل لدى اليهود والنصارى والمسلمين أيضاً أن حواء مخلوقة من آدم، من جزء من أجزاء آدم، مخلوقة من ضلع آدم، والنبى هو الذى قال هذا فى أحاديث صحت عنه ﷺ، فقد روى البخارى ومسلم [٤٨] فى صحيحيهما عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " **استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته ظل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً** " وهذا لفظ البخارى، وفى رواية الأعرج عن أبى هريرة فى صحيح مسلم: فإن ذهبت تقيمها — الضمير يعود على المرأة — كسرتها، وكسرها طلاقها... وقد أخذ شاعر هذا المعنى فقال فى بيتين:

هى الضلع العوجاء لست تقيمها * ألا إن قيام الضلع انكسارهـــا

جمعت ضعفاً وانكساراً على الفتى * أليس عجيباً ضعفها واقتدارها

هذا المعنى شائع فى أدبيات المسلمين، وأيضاً فى أدبيات أهل الكتاب الأُوَل. ولكن قد يرد عليه بالقول: إن النبى ﷺ لم يقل: " إنها خُلِقَت من ضلع آدم "، إنما قال: " خُلِقَت من ضلع " على سبيل الاستعارة والتشبيه، يريد أن يقول: إنها خُلِقَت من طبيعة عوجاء كالضلع، ولم يصرح، بدليل ما رواه البخارى فى صحيحه، لكن هذه المرة فى كتاب النكاح، وليس فى كتاب أحاديث الأنبياء عن أبى هريرة ﷺ. قال ﷺ: المرأة كالضلع...ولم يقل: خُلِقَت من ضلع، والمراد هو التشبيه، وليس القطع بقضية نشوئية، ولو قطع بها النبى لاتبعناه بدون كلام، لأن هذا من مقتضيات الإيمان، لكنه قال: المرأة كالضلع. وأخرجه مسلم فى صحيحه على التشبيه هكذا: " المرأة كالضلع ".

---

٤٨) بل رواه أيضاً فى: الترمذى، والدارمى، ومسند أحمد، والمستدرك على الصحيحين وغيرها من كتب الحديث.

لماذا اشتهر هذا التصور فى الفكر الإسلامى، واعتنقه العامة وكثير من المتخصصين؟

لأن القصة ذكرت فى التوراة — كما سبق بيانها -، وقد تضافرت عوامل عدة، ساعدت على شهرتها وانتشارها فى المجتمع الإسلامى، من أهمها مايلى:

أولا: دخل كثير من اليهود والصارى فى الإسلام، والمعروف أنهم لم يتخلصوا كلية من ثقافتهم السابقة، بل ظلوا يرددونها، خاصة وأن القرآن الكريم أخبر عن خلق حواء بأسلوب موجز، ولم يدخل فى التفصيلات.

ثانياً: عناصر القصة فى التوراة مادية محسوسة، وجماهير الناس مولعة بالمادى المحسوس، ولذلك وعتها فرددتها جيلاً بعد جيل.

ثالثاً: لما كانت القصة فى القرآن الكريم موجزة، احتاج المفسرون فى بيانه إلى الرجوع إلى مصادر أخرى، ينقلون منها التفصيلات، فنقل بعضهم ما جاء فى التوراة حول هذه القصة، وهو أن حواء خلقت من ضلع آدم.

لماذا نكثر الحديث حول هذا الموضوع، فسواء خلقت من طين، أو خلقت من ضلع آدم، كله سيان أمام قدرة الله تبارك وتعالى... لكن للمسألة آفاق أبعد وأكثر تعقيداً مما يبدو:

أولاً: كون أمنا حواء خلقت من ضلع آدم هى قضية واردة فى التوراة، فى أول إصحاحات سفر التكوين، فالمسألة لها أصل إسرائيلى، فهل يمكن أن يقال: إن هذا تسرب إلى المسلمين عن طريق هذه الإسرائيليات، خاصة أن أباهريرة ممن أكثر النقل عن بنى إسرائيل.....

ثانياً: كون المرأة خلقت من طين - ابتدأ خلقها من طين الأرض، كما ابتدأ خلق آدم- يكرس ويدعم نموذجاً فى التفكير.... ألا وهو أنه سينظر إلى قضايا المرأة على أنها مخلوق مستقل، وليست تابعة للرجل على اعتبار أنها خلقت من ضلعه.

ثالثاً: ليس فى القرآن آية واحدة، ولا شطر آية يمكن أن يستند إليها من يرى أن حواء خلقت من ضلع آدم.

رابعاً: لو استعرضنا آيات التشريع التى وردت فى القرآن الكريم لوجدنا أنها تخاطب كلا العنصرين: المرأة والرجل، فهما سواء فى التكليف والثواب والعقاب....فهو يخاطب المرأة، كما يخاطب الرجل، والمرأة مكلفة فى باب العبادات والأخلاق والمعاملات والقيم مثل الرجل تماماً.. فالمنظومة التشريعية فى القرآن تؤيد نموذج الاستقلال والمماثلة: رب واحد، وإنسان واحد، وتكوين واحد.

الخطيئة الأولى

خَطَأَ: حاد عن الصواب، وخطأ فى دِينِهِ: سلك سبيل الخطئ عامداً، أوغير عامد.....

والخطيئة: الذنب عن عمد، **والخِطْءُ**: الذنب فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الإسراء: ٣١]، أى إثماً، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يوسف: ٩٧]، أى آثمين.

والخطيئة الأولى: عقيدة مسيحية تشير إلى وضع الإنسان الآثم، الناتج من سقوط آدم عندما أكل هو وحواء من الشجرة التى حذره الله تعالى من الأكل منها، وتعتبر تقليدياً " الخطيئة الأولى "، وهى مافعله الإنسانان الأوليان، وهو الوضع الساقط الذى لايمكن - طبقاً للعقيدة المسيحية - أن يتخلص منه الإنسان إلا بنعمة الله.

وظلت فكرة ارتكاب هذه الخطيئة هى الفكرة المركزية على الدوام فى المسيحية، ولعل كثيراً من العقائد الأخرى تدور فى فلك هذه العقيدة، وتنتهى إليها. وقد أكد " إنجلز " أكثر من مرة، على أن الفكرة المركزية فى المسيحية كانت فكرة ارتكاب الخطيئة: " لقد مست المسيحية الجانب الذى يجب أن يجد الصدى فى عدد لا يحصى من الأفئدة، ووجد الوعى المسيحى الإجابة على التذمر والظلمات الناشئة فى مجرى الأزمنة الصعبة، وفى مجرى الفقر العام، المادى والأخلاقى فى ارتكاب الخطيئة. حقاً، هذا ماحدث، وما كان بالإمكان حدوثه بشكل مغاير، فالذنب فى فساد العالم ذلك، وكلكم مذنبون، فدخيلتكم ودخليتك الخاصة هى الفاسدة، فأين يوجد الإنسان الذى بمقدوره إنكار هذا

القول ". [٤٩]

والمراد من كفارة هذه الخطيئة فى علم العقيدة المسيحية: هو قربان يسوع المسيح الذى يعود به الإنسان المذنب فوراً فى كنف رحمة الله. وتقوم هذه العقيدة على عدة افتراضات:

الأول: أن الإنسان بعد عن رحمة الله بسبب الذنب الذى ارتكبه آدم.

الثانى: أن كلمة (الابن) إنما حلت فى الجسد الإنسانى، لكى يقرب الإنسان من رحمة الله من جديد. [٥٠]

وينطوى هذا التعريف على دلالات عدة من الجوانب العقدية والتاريخية، التى لا يمكن بدون فهمها قبول هذه العقيدة:

أولاها: أنه عندما خلق الله آدم وَفَّر له كل أنوع الراحة، و لم يمنعه من شيء إلا من الأكل من الشجرة، وقد منحه قوة الإرادة فى حرية كاملة، بحيث كان يمكنه التقيد بهذا النهى إذا شاء، كما كان يمكنه أن يخالف هذا الأمر إذا شاء.

ثانيها: إن آدم استعمل هذه الإرادة فى غير موضعها، فارتكب ذنباً كبيراً بمخافة أمر الله والأكل من الشجرة.

وقد ترتب على شناعة هذه الخطيئة أثران:

الأول: أن آدم قد استحق جزاءً على هذه الخطيئة، ألا وهو "الموت الدائم " أو " العذاب الدائم " كما نص على ذلك فى الكتاب المقدس: " وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ، وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ. لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتاً تَمُوتُ ". [٥١]

الثانى: أن الله سلب آدم الحرية، وكان قد وهبه القدرة على فعل المعروف

---

٤٩) توكاريف صـ ٥٠٤

٥٠) دائرة المعارف البريطانية جـ ٢ صـ ٦٥١ مادة: الكفارة.

٥١) سفر التكوين ٢ : ١٧

والمنكر بإرادة واختيار منه، وبما أنه قد أخطأ فانتزعت منه هذه القدرة، يقول " أوغسطينوس": " لما أذنب الإنسان بقوته الإرادية الحرة، فبما أن الذنب قد تغلب عليه، فانتزعت منه حريته الإرادية، لأن المغلوب عبد من غلبه، كما يقضى به بطرس الرسول.... فلا يحظى بالحرية نحو عمل المعروف حتى يتحرر من المنكر، ويأخذ فى العبودية للمعروف " [٥٢]. وبما أن اقتراف الخطيئة سبب انتزاع حرية الإرادة من آدم وحواء، ولم يعودا مختارين فى صنع المعروف، رُكِّبَت الخطيئة مع طبيعتهما، وكانت الطبيعة لهما وعادة، وتسمى هذه الخطيئة فى الاصطلاح: "الخطيئة الأصلية". وبما أن جميع البشر الذين وجدوا من بعد آدم وحواء، أو سيوجدون فى المستقبل حتى يوم القيامة، إنما ولدوا من أصلابهما، **فقد انتقلت هذه الخطيئة إلى جميع أفراد البشر.**

يقول القس " لبيب ميخائيل ": لقد كان آدم نائباً، ومُمَثِّلاً لجميع البشر، الذين كانوا فى صلبه يوم تعدى وصية الله..... فبعد طرده من الجنة ولد نسلاً **ساقطاً نظيره**، فى حالة الفساد الروحى والأدبى، وتحت حكم الموت والدينونة التى استحقها بعصيانه وتمرده على الله، وقد ورث هذا الجيل عن أبويه الأولين حالة العداوة لله، والتمرد على شعائره ووصاياه.... وهذا ما يقرره " بولس " فى كلماته: " من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم، وبالخطيئة الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع."

هذا هو مضمون فكرة الخطيئة حسب تصور النصارى، والذى بموجبه **أصبح جميع البشر آثمين**، وتمتد هذه الفكرة لتشمل الأطفال الصغار، يظهر ذلك فى مقالة للقديس " أوغسطين " الذى يقرر: " بأن كل الأطفال غير المعمدين

---

٥٢) لفات: محمد والمسيح صـ ٨٠.

محكومون بالحرق أبدياً فى نار جهنم " [٥٣]

تقوم العقيدة النصرانية على عدم مغفرة خطيئة آدم، مما استوجب صلب ابن الله فداءً للبشر، غير أن بعض الباحثين يدلل من خلال نصوص عند بعض طوائفهم على أن الله غفر لآدم هذه المعصية... " فقد وجدنا نصوصاً مكتوبة (معتمدة وغير معتمدة) تقول: إن خطيئة آدم قد غُفِرَت، مثل كون الحكمة قد أنقذت آدم من زلته (الحكمة – العهد القديم)، وأن كلماته قد قبلت عند الله، وأنه لم يكن سبب موت الإنسان، وأن كل واحد منا آدم نفسه، كما لم يكن آدم مسئولاً إلا عن نفسه (باروك الثنى والتلمود)، بل إن هناك إصحاحاً كاملاً فى سفر حزقيال فى التوراة (إصحاح ١٨) لا يتكلم إلا عن رفض عقيدة توريث الخطيئة، لهذه الأسباب وغيرها رفضت طوائف قديمة من النصارى هذه العقيدة، مثل طائفة راهب القرن الرابع، الأيرلندى " بيلا جيوس " الذى تعرض للاضطهاد، إلا أن أتباعه كانوا يتزايدون، خاصة فى الكنائس الشرقية. وقد أعلن مجمع " اللد " عام ٤١٥ أنه مستقيم العقيدة، وقد بقى أثره إلى يومنا هذا فى عقيدة سبق التعيين عند أتباع " كالفن " والإرادة الحرة عند "الميثوديست"[٥٤].

---

٥٣) راجع: adyan-center.org بقلم: هشام ابت الزاويت.

٥٤)www. Ebnmaryam.com

دور حواء فى ارتكاب الخطيئة

يضاف إلى أن الخطيئة هى الركيزة الأساسية فى العقيدة المسيحية: أن حواء هى التى وقعت تحت غواية الشيطان، فأكلت من الشجرة، ثم حملت آدم على الأكل منها، أى أنها السبب فى خطيئة آدم، يتضح ذلك من نص الكتاب المقدس:

" وَكَانَتْ الْحَيَّةُ أَحْمَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِيَّةِ الَّتِى عَمِلَهَا الرَّبُّ الْإِلَهُ. فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَتَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَقَالَتْ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ. وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِى فِى وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا. فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ لَنْ تَمُوتَا. بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلْأَكْلِ وَأَنَّهَا بَهجَةٌ لِلْعُيُونِ وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا فَأَكَلَ [٥٥] ..... (وعندما وجه الله لآدم هذا السؤال): هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِى أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا. قَالَ آدَمُ الْمَرْأَةُ الَّتِى جَعَلْتَهَا مَعِى أَعْطَتْنِى مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلتُ....." [٥٦]

لكن الإسلام يقرر: أن الطبيعة الإنسانية كاملة نقية، وأن فطرة الإنسان طاهرة مبرأة من السوء والشر، وأن الخطيئة كسب، وعرض حادث، لا إرث وارث، فكم من أبوين صالحين أنجبا أولاداً فجرة، وكم من بيوت منحلة أنبتت علماء وقديسين، فالعابد قد ينجب الفاسد، ومن الفاسد يخرج العابد، وكم من

---

٥٥) تكوين ٣: ١ – ٦.

٥٦) تكوين ٣: ١١ – ١٢.

أخوين شقيقين تربيا فى نفس البيئة، ولكنهما اختلفا فى الطبع والأخلاق، قد يكونا ولدين، أحدهما عالم، والآخر عربيد، ومن أمثلة ذلك: إبراهيم الخليل عليه السلام كان والده كافراً، وهذا نوح انبى، ولده فى الدرك السفل من النار.

نعم، يولد الإنسان من غير أن تكون الخطيئة مركوزة فيه، وهو قابل للترقى بالإحسان، وقابل للتدنى بالإساء، يستطيع أن يسمو إلى أعلى عليين، كما يستطيع أن يهوى إلى أسفل سافلين، كل حسب عمله، يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [التين: ٤ – ٦]

ففكرة تحمل بنى آدم خطيئة أبيهم لاتجد لها سنداً، لا من عقل، ولا من منطق، إذ لايقبل العقل أن يقترف واحد خطيئة، من أى نوع كانت، ثم ينتقل إثم هذه الخطيئة إلى بنيه من بعده، وليس من المنطق أن يتحمل شخص ما اقترفه آخر بدون أن يكون له يد فى ذلك الذنب، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ويقول: ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المدثر: ٣٨]

والمعروف والمشهور بين الناس أن حواء هى التى وقعت أولاً تحت غواية الشيطان، فأكلت من الشجرة، ثم أغوت هى آدم فأكل منها، ولذا شاع بين الناس أن المرأة هى أداة الشيطان، وبسببها خرج آدم من اجنة؛ إذ لو لم تخر قواها أمام الشيطان، ما نجح الشيطان فى غواية آدم، وبالتالى ما خرج من الجنة، فشقاء بنى الإنسان كان بسببها.

هذا ما يشاع بين الناس، ولكن ينبغى أن نعلم أن القرآن الكريم ليس مصدر هذا التصور، بل سببه ماذكر فى التوراة – كما بينا سابقاً — من أن الشيطان أغوى حواء فأكلت من الشجرة، ثم أعطت آدم فأكل منها.

فالتوراة نسبت الخطيئة إلى حواء، أما القرآن الكريم فينسبها إليهما معاً، فهما متضامنان فى تحمل المسئولية، فقال تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [البقرة: ٣٦]

بل نصت آية " طه " على أن الشيطان وسوس إلى آدم فقط، يقول تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه: ١٢٠ – ١٢١]، فنسب العصيان والغواية لآدم دون حواء.

ومما لاشك فيه أن تبرئة القرآن الكريم حواء على هذا لنحو، يرفع عن المرأة لعنة لحقتها عبر القرون، ويرفع عنها سبة الضعف المطلق، والانهيار السريع أمام الغواية، ولا يخفى أثر هذا الاتجاه على وضعها فى المجتمع.

الجريمة الأولى

كان قَتْلُ ابن آدم أخاه أول جريمة قتل تقع فى بداية التاريخ الإنسانى، وكان الدافع إليها قُرْب المقتول من الله، وقبوله عنده، مع رفض قبول القاتل. وبعد أن وقعت الجريمة لم يدر القاتل كيفية التخلص من جثة أخيه، فبعث الله غراباً ليعلمه ذلك، لأن موت الجسد لم يكن له مثيل قبل ذلك، فلم يمت أحد من البشر قبل هذه الحادثة. وكانت هذه الجريمة بمثابة اعتداء على المجتمع كله، لأن المقتول جزء منه، فالاعتداء على الجزء هو فى نفس الوقت اعتداء على الكل.

صورت التوراة هذا الحادث على النحو التالى:

" وَعَرَفَ آدَمُ امْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ قَايِينَ. وَقَالَتْ اقْتَنَيْتُ رَجُلاً مِنْ عِنْد الرَّبِّ. ثُمَّ عَادَتْ فَوَلَدَتْ أَخَاهُ هَابِيلَ. وَكَانَ هَابِيلُ رَاعِياً لِلْغَنَمِ وَكَانَ قَايِينُ عَامِلاً فِى الْأَرْضِ. وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَيَّامٍ أَنَّ قَايِينَ قَدَّمَ مِنْ أَثْمَارِ الْأَرْضِ قُرْبَاناً لِلرَّبِّ. وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضاً مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِه وَمِنْ سِمَانِهَا. فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِه. وَلَكِنْ إِلَى قَايِينَ وَقُرْبَانِه لَمْ يَنْظُرْ. فَاغْتَاظَ قَايِينُ جِدًّا وَسَقَطَ وَجْهُهُ. فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ لِمَاذَا اغْتَظْتَ وَلِمَاذَا سَقَطَ وَجْهُكَ. إِنْ أَحْسَنْتَ أَلاَ رَفْعٌ. وَإِنْ لَمْ تُحْسِنْ فَعِنْدَ الْبَابِ خَطِيَّةٌ رَابِضَةٌ وَإِلَيْكَ اشْتِيَاقُهَا وَأَنْتَ تَسُودُ عَلَيْهَا.

وَكَلَّمَ قَايِينُ هَابِيلَ أَخَاهُ. وَحَدَثَ إِذْ كَانَا فِى الْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ قَامَ عَلَى هَابِيلَ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ. فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ أَيْنَ هَابِيلُ أَخُوكَ. فَقَالَ لَا أَعْلَمُ. أَحَارِسٌ أَنَا لأَخِى. فَقَالَ مَاذَا فَعَلْتَ. صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الْأَرْضِ. فَالْآنَ مَلْعُونٌ أَنْتَ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِى فَتَحَتْ فَاهَا لِتَقْبَلَ دَمَ أَخِيكَ مِنْ يَدِكَ. مَتَى عَمِلْتَ الْأَرْضَ لاَتَعُودُ تُعْطِيكَ قُوَّتَهَا. تَائِهاً وَهَارِباً تَكُونُ فِى الْأَرْضِ. فَقَالَ قَايِينُ لِلرَّبِّ ذَنْبِى أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحْتَمَلَ. إِنَّكَ قَدْ طَرَدْتَنِى الْيَوْمَ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ وَمِنْ

وَجْهكَ أَخْتَفِي وَأَكُونُ تَائِهاً وَهَارِباً فِي الْأَرْضِ. فَيَكُونُ كُلُّ مَنْ وَجَدَنِي يَقْتُلُنِي. فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ لِذَلِكَ كُلُّ مَنْ قَتَلَ قَايِينَ فَسَبْعَةُ أَضْعَافٍ يُنْتَقَمُ مِنْهُ. وَجَعَلَ الرَّبُّ لِقَايِينَ عَلَامَةً لِكَيْ لَا يَقْتُلَهُ كُلُّ مَنْ وَجَدَهُ. فَخَرَجَ قَايِينُ مِنْ لَدُنْ الرَّبِّ وَسَكَنَ فِي أَرْضِ نُودٍ شَرْقِيَّ عَدْنٍ." [٥٧]

أما القرآن الكريم فصور هذا الحدث على النحوالتالى، يقول الله تعالى:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٨) إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا أَوْ ..... (٣٢) ﴾

[المائدة: ٢٧ – ٣٢]

فإذا قارنا بين نص التوراة ووحى الله فى القرآن الكريم الذى أنزله على رسوله ﷺ نجد ما يلى:

١. لم يذكر القرآن الكريم اسمى ابنى آدم: لأن ذكر الأسماء فى قصصه ليس من الأهداف التى جاء من أجلها الوحى: وهى العظة والاعتبار، فهى مقاصده

٥٧) سفر التكوين ٤ : ١-١٦.

وأغراضه، وهى ما ترمى إليه من موضوعات دينية وقيم أخلاقية، فالأسماء ليست عنصراً أساسياً فى قصص القرآن الكريم، إلا إذا كان فى ذكرها هدف دينى أو أخلاقى.

٢. ولما لم يذكر القرآن الكريم اسميهما، فبالتالى لم يبين عمل كُلٍّ منهما كالرعى والزراعة كما بينت ذلك التوراة، لأن هذا العنصر ليس له هدف فى القصة، ألا وهو بيان ما فى النفس الإنسانية من حسد الأخ على أخيه إذا وجد عنده نعمة حُرِمَ هو منها.

٣. مخاطبة الله لقابيل كما جاء فى التوراة، هو أمر غير مألوف، لأن الله لم يخاطب أحداً ويحاوره، إلا إذا كان نبياً ورسولاً، فلم يكن هناك اتصال الله بأحد غيرهم إلا من ألهمه الله كأم موسى بإلقائه فى اليم، وإلهام النحل بأن تتخذ من الجبال بيوتاً، ولا يندرج هذا الإلهام تحت مفهوم خطاب الله للإنسان الذى اصطفاه من خلقه ليبلغ رسالته، فكيف يخاطب الله إنساناً خطاباً مباشراً وهو غير نبى، بل هو عاصٍ، عصى أمر ربه فقتل أخاه. إن هذا التكريم - وهو خطاب الله — لا يصح أن يكون لمرتكب جريمة قتل، وأى جريمة ! إنها قتل أخيه، ابن أبيه.

٤. تكريم الله لقاتل أخيه، وهو قابيل، كما صرحت بذلك التوراة بأن بينت أن الله حماه ممن يريدون عقابه على ما ارتكبه فى حق أخيه؛ إذ جعل له علامة ليحميه من أى إنسان يريد القصاص منه، وهذا ما يُعْرَف الآن فى بعض طبقات المجتمعات الإنسانية من حماية المجرم حتى لا يناله عقاب على ما اقترفه، وهو أمر مذموم ومرفوض فى المجتمع الإنسانى، فما بالك إذا كان حامى المجرم هو الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتنزه عن هذا الإثم الذى نسبته التوراة إليه.

٥. كيف يسأل الله قابيل عن أخيه، وهو عليم بما فى الكون كله، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور. إن تعبير التوراة بهذا الأسلوب يوحى بأن نصوصها ليست وحياً، وإنما كتبه بشر، عَبَّر عن ملابسات الحدث بما يراه فى مجتمعه، وما تعلمه من ثقافة عصره.

٦. انفرد القرآن الكريم بالحديث عن الغراب الذى بعثه الله ليعلم قابيل كيفية التخلص من جثة أخيه، وذلك أمر مهم، لأن من أهداف النصوص الدينية تعليم الإنسان ما يجب عليه عمله فى مواجهة الظواهر الذى لم يسبق له رؤيتها، وهى هنا موت إنسان ورؤية جثته هامدة، لأنه لم يسبق لأولاد آدم أن شاهدوا هذا، فهو أول حدث يروه فى حياتهم، فلم يكن دفن الموتى قد عُرِفَ بعد. ولذلك كان لزاماً أن تعمه النصوص كيفية التعامل مع أجساد الموتى، وهذا أمر غفلت عنه التوراة فلم تذكره، وهو يعتبر نقصان فى مجال توجيه الإنسان فى حياته، وتعامله مع ما يستجد أمامه من أحداث.

٧. ذكر القرآن الكريم مبدأ من المبادئ التى لم تتوصل إليها المجتمعات البشرية إلا فى العصر الحديث، ألا وهو اعتبار الاعتداء على فرد من أفراد الأمة بمثابة اعتداء على الأمة كلها، لأنه - أى المعتدى عليه - جزء من المجتمع، فما يحدث للجزء من آلام هو فى الواقع يؤلم المجتمع كله، طبقاً للقاعدة المشهورة التى تصف المجرمين بأنهم خطر على المجتمع، أو التى تحدد قانونية الجريمة بأنها اعتداء على المجتمع، كما يرد ذلك وصف المجرم والجريمة فى سردها لملابسات الجريمة أمام المحكمة.

نسج المجتمع الدينى - بل والمجتمع البشرى بوجه عام — خيوطاً أسطورية حول هذه القصة، فأدخل فيها عناصر ليست موجود فى التوراة، ولم يشر إليها القرآن الكريم أدنى إشارة، فهى من وحى الاتجاه العام فى المجتمع الإنسانى، إذ

يولع غالبية أفراد أى مجتمع - مهما كانت درجة حضارته، وسُلَّم تقدمه - بسرد الأساطير حول أى قصة تصل إليه، سواء من مصدر دينى، أو من منبع أدبى، وإن كان الغالب الأعم أن الأساطير والخرافات تحاك حول النصوص الدينية، فمن خرافات هذه القصة ما يلى:

قال بعضهم: غشى آدم حواء بعد مهبطهما فى الأرض بمائة سنة، فولدت له قابيل وتوأمته " إقليما " فى بطن، ثم هابيل وتوأمته " لبودا " فى بطن واحد.

وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: إن آدم كان يغشى حواء فى الجنة قبل أن تهبط إلى الأرض، فحملت له بقابيل وتوأمته، فلم تجد عليهما وَحَماً ولا نصباً ولا طَلَقاً حين ولدتهما، ولم تر معهما دماً لطهارة لبنه، فلما هبطا إلى الأرض واطمأنا بها تغشاها، فحملت بهابيل وتوأمته "لبودا"، فوجدت فيها الوحم والنصب والطلق والدم، حتى إذا شب أولاده زوَّج غلام هذا البطن جارية البطن الآخر، وزوَّج جارية هذا البطن غلام البطن الآخر، وكان الرجل منهم يتزوج أىَّ أخواته شاء إلا توأمته التى ولدت معه، فإنها لاتحل له، وذلك أنه لم يكن نساء يومئذ إلا أخواتهم وأمهم حواء. فلما وُلِدَ قابيل وتوأمته " إقليما " فى بطن واحد، وهابيل وتوأمته " لبودا " فى بطن واحد، وكان بينهما سنتان فى قول الكلبى، وأدركوا أن أمر الله تعالى أن ينكح " لبودا " أخت هابيل قابيلُ، وينكح هابيلُ " إقليما " أخت قابيل، وكانت أخت قابيل من أجمل النساء وأحسنهن خلقاً، فذكر آدم ذلك لولده هابيل فرضى، وسخط قابيل، وقال: هى أختى ولدت معى فى بطن، وهى أحسن من أخت هابيل، فأنا أحق بها، ونحن من أولاد الجنة، وهما من أولاد الأرض، فأنا أحق بأختى، فقال له أبوه: إنها لا تحل لك، فأبى أن يقبل منه ذلك، وقال: إن الله تعالى لم يأمره بذلك، وإنما هو من رأيه، فقال لهما آدم: قرِّبا قرباناً، فأيكما

يُقبَل قربانه فهو أحق بها..... قالوا: وكانت القرابين حينئذ إذا قُبِلَت نزلت نار من السماء فأكلتها، وإذا لم تُقبَل لم تنزل نار لأكلها وتأكلها السباع، فخرجا ليقربا، وكان قابيل صاحب زرع، فقرب صُبْرة من الطعام من أردأ زرعه، وأضمر فى نفسه ما أبالى أيُقبَل منى أم لا، لا يتزوج أختى أبداً. وكان هابيل راعياً، صاحب ماشية، فقرب كبشاً سميناً من خيار ما شيته ولبناً وزبداً، وأضمر فى نفسه الرضا بالله والتسليم لأمره. وقال إسماعيل بن رافع: إن هابيل نتج له كبش فى غنمه، فلما كبر لم يكن له مال أحب إليه منه، وكان يحمله على ظهره، فلما أُمِرَ بالقربان قَرَّبه. قال: فوضعا قربانهما على الجبل، فنزلت نار من السماء فأكلت الكبش والزُّبْدَ واللبن، ولم تأكل من قربان قابيل حبة، لأنه لم يكن بزكى القلب، وقُبِلَ قربان هابيل لأنه كان زكى القلب، فما زال الكبش يرتع فى الجنة حتى فُدِىَ به ابن إبراهيم.....وقد غضب قابيل لما ردَّ الله قربانه، وظهر فيه الحسد والغى، وكان يضمرهما قبل ذلك فى نفسه إلى أن أتى آدم من مكة ليزور البيت..... قالوا: فلما غاب آدم أتى قابيل إلى هابيل وهو فى غنمه، فقال: لأقتلنك؟ قال: ولِمَ؟ قال: لأن الله قَبِلَ قربانك ولم يقبل قربانى، وتنكح أختى الحسناء وأنكح أختك الدميمة، فيتحدث الناس أنك خير منى وأفضل، ويفتخر ولدك على ولدى، فقال له هابيل: وما ذنبى؟ ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

قال عبد الله بن عمر: إن المقتول كان أشد، ولكن منعه التحرج أن يبسط إلى أخيه يده..... قال اسدى: لما قصد قابيل قتل هابيل زاغ هابيل فى رءوس الجبال، ثم أتاه يوماً من الأيام وهو نائم، فرفع صخرة، فشج بها رأسه، فمات. وقال ابن جريج: لم يدر قابيل كيف يقتل أخاه، فتمثل له إبليس، وأخذ طيراً

فوضع رأسه على حجر، ثم شدخه بحجر آخر، وكان لهابيل يوم قُتِلَ عشرون سنة...." [٥٨]

واستمر القاصون فى نسج المزيد من خيوط هذه الخرافة، فتحدثوا عن موضع الجريمة مع اختلاف آراء الرواة فى تحديده، وحيرة قابيل فى التخلص من الجثة وحملها على كتفه وتكالب الطير عليها مع تسرب التحلل إليها، ثم رووا شعراً على لسان كلٍّ من: وآدم، وحواء، وكذا إبليس، فمما رووه من شعر آدم، وهو أول شعر - كما يقولون - قيل:

تغيرت البلاد ومن عليها * فوجه الأرض مغبرّ قبيح
تغير كل ذى طعم ولون * وقل بشاشة الوجه الصبيح
وقابيل أذاق الموت هابيل فواحزنا لقد فقد المليح
ومالى لاأجود بسكب دمع * وهابيل تضمنه الضريح
وجاءت شُعْلة ولها رنين * لهابلها وقابلها يصيح
لقتل ابن النبى بغير جرم * فقلبى عند قتلته جريح
وجاوَرَنا لعين ليس يفنى * عدو لا يموت فنستريح

ونسبوا إلى حواء هذه الأبيات رداً عليه:

دع الشكوى فقد هلكا جميعاً * بموت ليس بالثمن الربيح
وما يغنى البكاء عن البواكى * إذا ما المرء غُيِّب فى الضريح
فابك النفس وانزل عن هواها * فلست مخلداً بعد الذّبيح

فأجابها إبليس - كما يروون — لعنه الله شامتاً:

تنحَّ عن البلاد وساكنيها * ففى الجنات ضاق بك الفسيح

---

٥٨) الثعلبى صـ ٤٣ - ٤٥.

وكنتَ بها وزوجكَ فى رخاء * وقلبك من أذى الدنيا مريح
فمازالت مكايدتى ومكرى * إلى أن فاتك الثمن الربيح
فلولا رحمة الجبار أضحى * بكفك من جنان الخلد ريح

فهل عرف الرواة كل هذه التفاصيل فى هذه القصة؟ وهل روته الأجيال عبر القرون والأحقاب كما كانت، على الرغم من أنهم حرفوا نصوص الوحى التى لم يمر على إنزالها فترة قصيرة جداً، إذا قيست بالفترة بين أحداث الجريمة الأولى وبين من رووها؟

إنه ولع الإنسان بنسج الأساطير والخرافات حول أحداث رُوِيَت له بايجاز فى النص المقدس، فزاد عليها تفصيلات لا أصل لها. فهذه الروايات الأسطورية من نسج الخيال، فكل عناصرها مطعون عليها بكل مقاييس الفحص والتدقيق: عقلاً، ومنطقاً، وواقعاً، وتاريخاً، ومنهجاً، سواء ارتكز على النصوص الدينية التى وصلت إلينا، أو سار فى دهاليز التجارب البشرية على امتداد التاريخ الإنسانى.

تسربت الروايات الأسطورية التى نسجت حول ابنى آدم إلى التفسير، فنقلها المفسرون كما ذُكِرَت فى كتب القصص والروايات دون تمحيص [٥٩]، إلا أن الرازى ذكر فى تفسيره لهذه الآيات أن الحسن والضحاك قالا: " أن ابنى آدم اللذين قربا قرباناً ما كانا ابنى آدم لصلبه، وإنما كانا رجلين من بنى إسرائيل. قالا: والدليل عليه قوله تعالى فى آخر القصة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: ٣٢]، إذ من الظاهر أن صدور

٥٩) انظر ! الرازى جـ ١١ صـ ١٦١، والزمخشرى جـ ١ صـ ٦١١-٦١٢، وابن كثير جـ ٢ صـ ٥٤٢-٥٥١.

هذا الذنب من أحد ابنى آدم لا يصح أن يكون سبباً لإيجاب القصاص على بنى إسرائيل، أما لما أقدم رجل من بنى إسرائيل على مثل هذه المعصية، أمكن جعل ذلك سبباً لإيجاب القصاص عليهم زجراً لهم عن المعاودة إلى مثل هذا الذنب. وما يدل على ذلك أيضاً أن المقصود من هذه القصة بيان إصرار اليهود أبداً من قديم الدهر على التمرد والحسد، حتى بلغ بهم شدة الحسد إلى أن أحدهما لما قَبِلَ الله قربانه حسده الآخر وأقدم على قتله، ولاشك أنها رتبة عظيمة فى الحسد، فإنه لما شاهد أن قربان صاحبه مقبول عند الله تعالى، فذلك مما يدعوه إلى حسن الا عتقاد فيه والمبالغة فى تعظيمه، فلما أقدم على قَتْلِه، وقَتَلَهُ مع هذه الحالة، دل ذلك على أنه كان قد بلغ فى الحسد إلى أقصى الغايات، وإذا كان المراد من ذكر هذه القصة بيان أن الحسد دأب قديم فى بنى إسرائيل، وجب أن يقال: هذان الرجلان كان من بنى إسرائيل."

إلا أن الرازى عقب على ذلك بقوله: " واعلم أن القول الأول هو الذى اختاره أكثر أصحاب الأخبار، وفى الآية أيضاً ما يدل عليه، لأن الآية تدل على أن القاتل جهل ما يصنع بالمقتول، حتى تعلم ذلك من عمل الغراب، ولو كان من بنى إسرائيل لما خفى عليه هذا الأمر، وهو الحق..." [٦٠]

والحقيقة: أن الله أراد أن يعلم الإنسان أن حقد الأخ على أخيه يدفعه إلى إلحاق الأذى بمن تفوق عليه فى ضروب الحياة المختلفة، قد يصل إلى حد قتله، وضرب له مثلاً لذلك بأن هابيل تفوق على قابيل فى مجال القرب من الله ورضا الخالق عنه، فلم يتحمل قابيل سخط الخالق عليه، مع تميز أخيه عليه فى هذه المكانة العليا عند الله، فدفعه هذا إلى قتله. ثم بين الله أن قَتْل فرد من المجتمع

---

٦٠) الرازى جـ ١١ صـ ١٦١.

يعتبر اعتداء على الناس جميعاً، لأن هذا الفرد جزء من المجتمع، والاعتداء على الجزء يؤلم الكل، فيجب على الإنسان أن يحافظ على مجتمعه حتى ينعم الجميع بالأمن والأمان، والطمأنينة والسلام. وهذان العنصران هما الهدف من رواية القصة فى القرآن الكريم، وصدق الله إذ يقول: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٩]

ولما كانت الهداية هى هدف القرآن الكريم الأساسى، وليس التاريخ ولا القصص، أو سرد أحداث وقعت كما كانت، فلا مجال لاعتراض بعض علماء الأديان بأن القربان لم تعرفه البشرية إلا فى عصر متأخر، فقد عبر القرآن الكريم عن تقرب الإنسان إلى الله بما يعرفه أهل مكة، وبما استقرت عليه الشرائع قبل الإسلام من وسائل التقرب إلى الله بتقديم القرابين أو الصدقات: فليس المراد من الإخبار بأن ابنى آدم قدما القرابين التى استقرت عليها طقوس الأديان فى العصور المتأخرة، بل هو تعبير عن وسيلة التقرب إلى الله بما يعرفه المخاطبون بالقرآن الكريم، وإن اختلفت صيغته وكنهه فى زمن ابنى آدم.

الشيطان

تمثلت قوة الشر عند الإنسان البدائى فى شكل أرواح شريرة، دخلت فى صراع مع الأرواح الطيبة، فقد ظهرت هذه الأرواح فى الأساطير الهندية فى ثلاثة أقسام: أحدها: يشبه أرواح " الراكشا " البريئة التى تهيم على وجهها، ولا تؤذى أحداً إلا أن يتعرض لها. **والثانى:** يشبه العصاة المتمردين من الجن، ويعادى الإنسان ألد العداء، **والقسم الثالث:** يلوذ بالمقابر والصوامع، ويحالف الموت والخراب. ويقول من يزعمون رؤيتهم: إنهم مشوهون، بعضهم ذو رأسين، وبعضهم ذو ثلاثة أرجل، وفيهم من له عين واحدة فى رأسه، ومنهم من له عدة أعين، وكلهم على خلاف البشر فى التركيب.

ولا ينسب هؤلاء إلى " الراكشا " عمل من أعمال الإغراء والإغواء، ولكنهم قد يغتصبون النساء عنوة، ويتلصصون فى الطرق المقفرة، ويستبيحون الأذى للكيد أو للعبث والدعاية، ورئيس هؤلاء " الراكشا " المسمى " رفانا " هو الذى اختطف الحسناء " سيتا " زوجة البطل " رام "، كما جاء فى ملاحم " الريجفيدا "، ثم حملها إلى جزيرة سرنديب، ولم يستطع زوجها أن يهتدى إليها ويخرجها من أسرها إلا بمعاونة القرد " هنومان ".

فالشيطان فى صورة " الراكشا " هو الشر الذى أبغضه الآريون وصوروه لأبنائهم فى الصورة التى تنفرهم منه، وتحذرهم من كيده، واتهم عندهم بما يتهم به كل شعب مهزوم يستأصله أعداؤه، ويدفعون به إلى أقاصى الأرض وزوايا المدن، ويستثيرونه أحياناً من فرط الظلم، فيثور، ويهملونه أحياناً فيهيم على وجهه عاجزاً عن الأذى، قانعاً بالسلامة، أو متحفزاً للانتقام. [٦١]

---

٦١) العقاد: إبليس صـ ٤٢ — ٤٣.

وتمثل الصراع فى بابل بين الأرض والنجوم، فربة الأرض تتحدى السماء، فتستعين بالطوّافين على حكم أقطارها، وتخلق من جوفها الحيات والحيتان لتوطيد سلطانها، وبرج بابل يقيمه المتمردون من البشر ليرتفعوا به إلى مناجزة الأرباب فى سماواتها، وكل ثورة من ثورات الأساطير المزعومة، فإنما هى فى مدلولها خروج من الأرض على إرادة لسماء، لا تلبث السماء أن تكبحه وتروضه على الطاعة الواجبة، وعلى التسليم لها بحقوق الصلاة والقربان.[٦٢]

وفى البقاع الفارسية وما حولها ظهرت الثَّنَوِيَّة؛ فالكون يحكمه إلهان (وهما: " أورمزد " و "أهرمان" أو الروح الطيب والروح الخبيث): **أحدهما**: إله الملأ الأعلى، وهو رب الخير الذى خلق نوراً لا يحرق، وخلق الوردة والبلبل. **والثانى**: إله العالم الأسفل الذى تصدى لإله الملإ الأعلى، فحجب عنه خلائق الخير وشنها حرباً لاتزال حتى اليوم حامية الأوار. فمن عمل خيراً من الناس، فهم خدام الإله الأعلى، ومن عمل شراً منهم، فهم خدام الإله الأسفل. وسوف تحتدم الحرب كَرَّة أخرى، فيصعد الإله الأسفل إلى السماء السابعة، تحلق معه ألوف الألوف من جنده، وتطير بينه الحيات والثعابين، فيدور القتال سجالاً حتى ينهزم الإله الأسفل، ويلقى عصا الطاعة لإله السماء.[٦٣]

تعددت الآلهة فى الفكر اليونانى، فـ " زيوس " كبير الأرباب، يرتكب من الآثام ما يجعله أشبه مايكون بالشيطان، فهو فى جميع صوره: شهوانى، نَهِم، أكول، شديد الطمع، لا يبالى شيئاً من الدنيا غير استبقاء سطوته وموارد خزينته، وتمتلئ الأساطير اليونانية بأنباء لشجار بينه وبين قرينته " هيرا "، وكذلك شجاره مع الأرباب الأخرى؛ ففى إحدى المحاورات بينه وبين "

---

٦٢) المصدر السابق صـ ٤٩ .

٦٣) قارن ! المصدر السابق صـ ٥١ .

بروميثيوس " — كما تمثلها " لوسيان الساموسى " — أديب الأساطير المشهور:

– أطلقنى يازيوس ! حسبى ما قاسيت.

– أطلقك، أطلقك أنت؟ كيف؟ إنك لأولى أن يزداد عليك ثقل الأغلال، وأن تنطبق عليك جبال القوقاز جميعاً، وأن ينهش من كبدك اثنا عشر عُقاباً بدلاً من هذا العُقاب الواحد، فإنك أنت الذى أغريت هذه المخلوقات البشرية اللعينة بأن تجترئ على مناوأتنا، وأنت الذى اختلست سر النار، وأنت الذى سويت المرأة، وما بى حاجة أن أذكرك بما صنعت حين وضعت لى العظم على المائدة، وغطيته بالشحم تخدعنى عن طعامى، فذق أنت جزاءك، فإنك به لجدير.

– وهل ترانى لم أصب من ذلك الجزاء ما هو حسبى؟ ألم ألصق هنا بالجبل سنين بعد سنين، يأكل من كبدى عُقابُك هذا اللعين الأثيم؟

– إنك لم تصب عشر معشار الجزاء الذى أنت به حقيق.

– تأمل ! إننى لا أطلب منك الإفراج عنى سماحة بغير عوض، وإنما أهب لك سراً من الأسرار الغالية التى تعينك.

– آه، إنها حيلة من حيل " بروميثيوس ".

– حيلة من حيلى؟ ولأى غرض؟ إن جبل القفقاز موجود، وإنك لقادر على الرجعة بى إليه، إن كذبت عليك.

– قل لى أولاً، فى أى شيء تكون هذه النصيحة الغالية؟

– إذا أنبأتك حقاً بشيء عن هذه النصيحة، ألا تعلم منها أيضاً أننى أحسن النبوءة عن الغيب؟

– بكل يقين.

– إنك على موعد زيارة لـــ " ثيتس ".

– إلى هنا أصبت، فماذا بعد هذا؟ قل ! إننى الآن أصغى إليك.

– لا تضاجعها يا " زيوس " ! فإن بنت " نيريس " لا تلبث أن تحمل منك حتى تلد طفلاً يبتليك بما تبتليني به الآن.

– تعنى أننى أفقد عرشى؟

– أعيذك من القضاء، وإنما أنبئك بما سيكون من وراء هذا اللقاء.

– إذن وداعاً يا " ثيتس "، وأنت يا " برمثيوس " سيأتيك " هيفسيتس " بالفرج القريب.

من هذا يتبين أن الإنسان اعتقد منذ خلقه بوجود أرواح خبيثة وأخرى طيبة، فنسج حولها الأساطير واخرافات، كما بحث عمن يقيه شر الخبيثة، ويمكنه من القربى للطيبة فينال جزاءها وثوابها، فلجأ إلى الساحر ليحصنه من شرور الخبيثة، واعتمد على طقوس الكاهن منفذاً أوامره بتقديم القرابين وتلاوة التعاويذ كى ترضى عنه الأرواح الطيبة.... ثم خطا الإنسان خطوة، فصور الشر بحية تزحف على التراب وتندس فى اجحور كيداً وخديعة، وتمكناً من الدس والأذى فيما توهمه، ولم يكن فى وسعه أن يتوهم شيئاً سواه؛ ولهذا بقيت صورة الحية مقترنة بقوة الشر، حقيقة أو رمزاً، إلى أحدث العصور.

لم يذكر اسم الشيطان – كقوة شريرة – فى كتب بنى إسرائيل قبل عصر المنفى إلى أرض بابل (٥٨٦ ق.م.). بل جاء ذكره وصفاً – لا إسماً – بمعنى الخصم فى القضية، أو المقاوم، كما أطلق مرة على الملك الذى تصدى لـــ " بلعام " فى طريقه، لأنه كان بمعنى المعترض، أو الضد، أو الخصم المقاوم. ولم يذكر عَلَماً إلا فى سفر أيوب حيث ورد فيه: " وقف الشيطان ضد إسرائيل ".

تمثل الشيطان فى قصة أيوب فى صورة الواشى، الموغر للصدر، ولم يكن

منعزلاً عن الملائكة، بل دخل معهم إلى الحضرة الإلهية... وجاء فى سياق القصة على النحو التالى: " وَكَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّهُ جَاءَ بَنُو اللهِ لِيَمْثُلُوا أَمَامَ الرَّبِّ وَجَاءَ الشَّيْطَانُ أَيْضاً فِى وَسْطِهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ مِنْ أَيْنَ جِئْتَ. فَأَجَابَ الشَّيْطَانُ الرَّبَّ وَقَالَ مِنَ الْجَوَلاَنِ فِى الأَرْضِ وَمِنَ التَّمَشِّى فِيهَا. فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ هَلْ جَعَلْتَ قَلْبَكَ عَلَى عَبْدِى أَيُّوبَ. لأَنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ فِى الْأَرْضِ. رَجُلٌ كَامِلٌ وَمُسْتَقِيمٌ يَتَّقِى اللهَ وَيَحِيدُ عَنِ الشَّرِّ. فَأَجَابَ الشَّيْطَانُ الرَّبَّ وَقَالَ هَلْ مَجَّاناً يَتَّقِى أَيُّوبُ اللهَ. أَلَيْسَ أَنَّكَ سَيَّجْتَ حَوْلَهُ وَحَوْلَ بَيْتِهِ وَحَوْلَ كُلِّ مَالَهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ. بَارَكْتَ أَعْمَالَ يَدَيْهِ فَانْتَشَرَتْ مَوَاشِيهِ فَى الْأَرْضِ. وَلَكِنِ ابْسُطْ يَدَكَ الْآنَ وَمَسَّ كُلَّ مَالَهُ فَإِنَّهُ فِى وَجْهِكَ يُجَدِّفُ عَلَيْكَ. فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ هُوَ ذَا كُلُّ مَالَهُ فِى يَدِكَ. وَ إِنَّمَا إِلَيْهِ لَا تَمُدُّ يَدَكَ. ثُمَّ خَرَجَ الشَّيْطَانُ مِنْ أَمَامِ الرَّبِّ....."[٦٤]

وفى المسيحية ذُكِرَ الشيطان بأسماء متعددة فى الإنجيل على لسان السيد المسيح؛ فذُكِرَ باسم الشيطان، واسم " روح الضعف "، واسم " الشرير "، واسم " رئيس هذا العالم، واسم " بَعْلزَبون ". وقيل عن " بعلزبون " بلسان الفريسيين: إنه رئيس الشياطين.

وتذكر الأناجيل أخبار المجانين الذين شفاهم السيد المسيح، فتقول عنهم تارة: إنهم صرعى الشياطين. وترد كلمة الشيطان فى الترجمة اليونانية مقابلة لكلمة العفريت والروح المتسلط " Disbolo "، أو مقابلة للكلمة التى تطلق على العفريت والروح المتسلط " Demon "، سواء كان شريراً أو غير شرير. ومن هنا أطلق على الشيطان اسم: " إبليس "، ونسب - أى الإنجيل - له سلطاناً

٦٤) سفر أيوب ١: ٦ - ١٢.

على العالم، يتضح هذا من قصة التجارب التى امتحن بها السيد المسيح فى البرية.

وينفرد إنجيل يوحنا بكلام منسوب إلى السيد المسيح يصف فيه إبليس بأنه رئيس هذا العالم، وفى إنجيل لوقا وردت الكلمة التى شبهت لقراء الأناجيل اسم الشيطان باسم " لوسيفر" حامل النور كما كان يدعى بعد عصر الأناجيل بعدة قرون، ففى هذا الإنجيل يقول المسيح للتلاميذ السبعين الذين أرسلهم للبشارة من قِبَله: "..رَأَيْتُ الشَّيْطَانَ سَاقِطًا مِثْلَ الْبَرْقِ مِنَ السَّمَاءِ." [٦٥]

أما غاية ما وصف به إبليس من السطوة فهو قول بولس الرسول عنه فى رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس: "....وَلَكِنْ إِنْ كَانَ إِنْجِيلُنَا مَكْتُومًا فَإِنَّمَا هُوَ مَكْتُومٌ فِي الْهَالِكِينَ الَّذِينَ فِيهِمْ إِلَهُ هَذَا الدَّهْرُ (يقصد إبليس) قَدْ أَعْمَى أَذْهَانَ غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ...." [٦٦]

استقر فى أذهان الدارسين للأدب فى كل لغات العالم، وفى مختلف العصور أن إنتاج الأديب، أو ما يسطره الفلاسفة والمفكرون هو حصيلة ما يتلقاه من مجتمعه من أفكار، وتقاليد، وعادات. فما يكتبه نابع مما يتلقاه من أفكار من سبقه، ومُصَوِّرَ لمعتقدات مجتمعه الذى نشأ فيه، وتربى على ثقافته. فمن يريد معرفة معالم التيارات الثقافية والمعتقدات الدينية، والمسلمات الفكرية لمجتمع ما فى أى عصر من العصور، فعليه أن يدرس ما كُتِبَ فى ذلك العصر، وما سطره علماؤه، وفلاسفته، ومفكروه. فإذا شذ عن هذه القاعدة مفكر، أو فيلسوف، فأتى بأفكار لم تكن فى عصره، فلا يخرج ذلك عن القاعدة؛ فهو إبداع فى ناحية ما، أو ابتكار لفكرة لم يتلقاها من عصره، ولم تنبع من مخزونه الثقافى الذى تلقاه من محيطه الفكرى، فهو إبداع لا يتعدى ومضة مفردة فى جوانب

---

٦٥) لوقا ١٠ : ١٨.

٦٦) ١٣ : ٣ – ٤.

الفكر، لا تصل إلى أن تكون نوعاً متكاملاً، أو تصوراً شاملاً، بعيد كل البعد عن المحيط الذى يعيش فيه؛ فالتطور فى الفكر يقوم على مثل هذه الأفكار المفردة، والتقدم فى مجال التكنولوجيا يزدهر من تراكم هذه الإبداعات الإنسانية التى يُضَمُّ بعضها إلى بعض، فتُحْدِثُ طفرة فى مجالها، أو تؤدى إلى اكتشاف لم يكن معلوماً من قبل، فلم يحدث أن أتى مفكر بنظريات متكاملة، لم يعرفها عصره، أو بمعلومات تغير الصورة الذهنية لقضايا سلمت بها المجتمعات البشرية، ورسخت فى أذهان الناس حتى أصبحت من الأمور المقدسة التى لا يختلف عليها اثنان، إلا أن يكون نبياً يوحى إليه من لدن عليم حكيم. ومن الأمثلة على ذلك ما تناقلته البشرية حول الصراع بين الخير والشر، وتصوراتها له على أنه صراع بين إلهين – إله الخير وإله الشر — أو صدام بين قوى الأرض وقوى السماء، أو نزاع بين أرواح طيبة وأخرى خبيثة، كما بين ذلك سابقاً، فقد جاء محمد ﷺ بالقول الفصل فى هذا الموضوع، مبتعداً عن كل تلك الأقاويل التى يقف العقل حائراً أمامها بين تصديق قلبى لها، ورفض عقلى لتصورها، جاء القرآن الكريم بحديث عن هذا الصراع يوائم بين العقل والقلب، ذلك أنه صاغ الموضوع بأسلوب أدبى يرضى جميع المستويات الثقافية فى كل المجتمعات الإنسانية، فلا تنفر منه العواطف الدينية، ولا تنكره عقول الفلاسفة، ومنطق المفكرين.

الشيطان فى الفكر الإسلامى

اسم " الشيطان " بالألف واللام هو أشهر الأسماء؛ لأنه ورد فى كتب الديانات الثلاث، ودخل فى تعبيرات اللغات الأوربية المتداولة بلفظه المنقول عن اللغات السامية، فيتحدث الغربيون اليوم عن الفكرة الشيطانية أو عن العمل الشيطانى، ويفهمون من عباراتهم معنى لا يلتبس على القائل، ولا على المتكلم. ومعنى الصفة الشيطانية عندهم مرادف للصفة الجهنمية التى تنطوى على الخبث. والبراعة، وحب الأذى، والتمتع بالإيذاء، كأنه منفس لطبيعة صاحبها يفرج عنه، ويسره أن يلمح آثاره وهو مستتر وراءه.

والرأى الغالب أن كلمة " الشيطان " هذه عبرية، بمعنى الضد أو العدو، ومن أسباب الظن باستعارتها من اللغة العبرية أنها لغة اليهود، وأن ديانة موسى عليه السلام سابقة للمسيحية والإسلام. ولكنه ظن يصدق فى حالة واحدة، وهى أن يكون اليهود أصلاء فى الكلام عن الشيطان، لم يسبقهم أحد من لمشارقة إليه، إلا أنها حالة لم تثبت، وقد يكون الثابت خلافها ونقيضها، فإن اليهود وصفوا الشيطان بعد هجرتهم إلى بابل، وليست طريق بابل موصدة دون الأمم السامية غير اليهود.

والأرجح عندنا أن الكلمة أصيلة فى اللغة العربية، قديمة فيها، لا يبعد أن تكون أقدم من نظائرها فى اللغة البابلية، لأن اللغة العربية قد اشتملت على كل جذر يمكن أن يتفرع منه لفظ الشيطان على أى احتمال، وعلى كل تقدير.

ففيها مادة: شط، وشاط، وشوط، وشطن، وفى هذه المواد معانى البعد، والضلال، والتلهب، والاحتراق، وهى تستوعب أصول المعانى التى تفهم من

كلمة الشيطان جميعها.

فالشطط من الغلو الذى يدخل فى أخص عناصر " الشيطنة "، والشط بمعنى الجانب المقابل، قد تلحظ فى مقابلة الخير بالشر من جانب الشيطان.

وشاط بمعنى احترق وتلف، وأشاطه بمعنى أهلكه وأتلفه، وانطلق شوطاً، أى ابتعد واندفع فى مجراه، وشطن أى ابتعد، فهو شيطان على صيغة فيعال.

وقد كان العرب يسمون الثعبان الكبير بالشيطان، ويقال فى بعض التفسيرات: إن هذا المعنى هو المقصود من قوله تعالى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الصافات: ٦٥]

وذكر الشراح اليهود المتأخرون أن الشيطان تمثل لآدم فى صورة الحية حين أغراه بأكل الثمرة المحرمة، ولم تنقطع العلاقة قط بين الحية والشيطان، ويؤخذ من سفر أيوب عليه السلام - وهو عربى باتفاق المؤرخين — أن الشيطان كان معروفاً بين العرب من ذلك العهد الذى كان سابقاً لعهد خروج بنى إسرائيل من مصر.

ويؤخذ من تاريخ الأدب العربى فى الجاهلية أن العرب قد عرفوا الشيطان فى أدواره الفنية والأدبية مع السحرة والشعراء، فليس هو مجرد اسم معرب نقلوه من لغة أخرى، ولم يزيدوا على وضعه فى موضعه من المأثورات العربية.

وأشهر أسماء الشيطان الأكبر فى اللغة العربية هو اسم " إبليس " الذى يختلف اللغويون فى أصله، كما يختلفون فى نسبة كلمة شيطان إلى إحدى اللغات السامية.

والمتكلم العربى يفهم من وصف إنسان من الناس بأنه " إبليس " كل ما يريده القائل من هذه الصفة، فهى دالة فى كلام العامة والخاصة على الدس، والفتنة، والدهاء، والسعى بالفساد. ولم تحمل كلمة واحدة من دلالتها اللغوية أكثر مما

حملته هذه الكلمة مستعاراً من صفات إبليس فى العقيدة الإسلامية.[٦٧]

ورداسم إبليس فى القرآن الكريم إحدى عشرة مرة، تسع منها جاء فى سياق الحديث عن عدم سجوده لآدم، وواحدة مضافاً إليه جنوده مع الغاوين الذين سيلقون فى جهنم، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٤ – ٩٥]، أى ألقى إبليس فى جهنم هو وأتباعه من العصاة. قال مجاهد: يعنى فَدُهْوِرُوا فيها، والمراد: أنه أُلْقِى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك، أى ألقوا فيها عن آخرهم.

والأخرى فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سبأ: ٢٠]، قال ابن كثير: لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم فى اتباعهم الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى، وخلف الرشاد واهدى، فقال: ﴿ .... أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال: ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧]، والآيات فى هذا كثيرة، وقال الحسن البصرى: لما أهبط الله آدم عليه السلام من الجنة ومعه حواء، هبط إبليس فرحاً بما أصاب منهما، وقال: إذ أصبت من الأبوين ما أصبت، فالذرية أضعف وأضعف، وكان ذلك ظناً من إبليس، فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سبأ: ٢٠]، فقال عند ذلك إبليس: لا أفارق ابن آدم مادام فيه الروح، أعده، وأمنيه، وأخدعه. فقال الله تعالى: وعزتى وجلالى، لا أحجب عنه التوبة، ما لم يغرغر بالموت، ولا يدعونى إلا أجبته، ولا يسألنى إلا أعطيته، ولا يستغفرنى إلا غفرت له، رواه ابن

٦٧) العقاد صـ ٢٨ – ٢٩.

أبى حاتم ". [٦٨]

وقد تعددت الآيات فى وصف مشهد عصيان إبليس لله بامتناعه عن السجود لآدم، وغضب الله عليه، وإمهال عقابه إلى يوم الدين، كما بينت تلك الآيات بدء عمل إبليس ضد آدم بغوايته، ثم عفو الله عن آدم وقبول توبته خلافاً للمسيحية التى تراها أن الله لم يغفر هذه الخطيئة لآدم، وظلت معلقة فى رقبة بنيه حتى بعث عيسى عليه السلام فصُلب – كما يزعمون – تكفيراً لهذه الخطيئة، يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

[البقرة: ٣٠ – ٣٨]

---

٦٨) ابن كثير جـ ٥ صـ ٥٤٧-٥٤٨.

وقد تساءل المعقبون على قصة آدم من العلماء غير المسلمين عن معنى الشجرة التى أكل منها آدم فى الدين الإسلامى، والجواب على هذا التساؤل أنها ترمز إلى التكليف بجميع لوازمه ونتائجه، فليس الفرق بين آدم قبل الأكل منها وبعد الأكل منها، إلا الفرق بين الحياة فى دعة وبراءة، والحياة " المكلفة " التى لا تخلو من المشقة والشقاق والامتحان بالفتنة، ومعالجة النقائص والعيوب، فكلما تكررت القصة فى الآيات القرآنية كان فى تكرارها تثبيت لهذا المعنى على وجه من وجوهه المتعددة، ويبدو ذلك جلياً من المقابلة بين ما تقدم وما جاء عن هذه القصة فى سورة الأعراف، وذلك حيث يذكر التصوير بعد الخلق، أو إعطاء الصور بعد إعطاء الوجود، ثم تمضى القصة على مايلى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ

تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١١ - ٢٧]

ومن تمام التوكيد لحدود التكليف فى هذه القصة أن خطاب آدم به لايغنى عن خطاب بنيه وأعقابه، فهو مكلف، وهم مكلفون، وكلفته لا تلزمهم، وتوتبته لا تغنى عنهم، ومولدهم منه يخرجهم على سنة الأحياء المولودين، حيث يحيون، وحيث يكدحون، وحيث يموتون. [٦٩]

جاء فى الرازى ما يلى: " اختلفوا فى أنه كيف تمكّن إبليس من وسوسة آدم عليه السلام مع أن إبليس كان خارج الجنة وآدم كان فى الجنة، وذكروا فيه وجوهاً: أحدها قول القصاص، وهو الذى رووه عن وهب بن منبه اليمانى، والسدىّ عن ابن عباس رضى الله عنهما، وغيره: أنه لما أراد إبليس أن يدخل الجنة منعته الخزنة، فأتى الحية، وهى دابة لها أربع قوائم كأنها البختية، وهى كأحسن الدواب، بعد ما عرض نفسه على سائر الحيوانات، فما قَبِلَه واحد منها، فابتلعته الحية، وأدخلته الحية خفية من الخزنة، فلما دخلت الحية الجنة خرج إبليس من فمها، واشتغل بالوسوسة، فلا جرم لعنت الحية، وسقطت قوائمها، وصارت تمشى على بطنها، وجعل رزقها فى التراب، وعدوًّا لبنى آدم.

٦٩) العقاد صـ ٩٦ - ٩٧.

واعلم أن هذا وأمثاله مما يجب ألايلتفت إليه، لأن إبليس لو قدر على الدخول فى فم الحية، فلِمَ لم يقدر على أن يجعل نفسه حية، ثم يدخل الجنة، ولأنه لما فعل ذلك بالحية، فلِمَ عوقبت الحية مع أنها ليست بعاقلة ولا مكلفة؟

وثانيها: أن إبليس دخل الجنة فى صورة دابة، وهذا القول أقل فساداً من الأول.

وثالثها: قال بعض أهل الأصول: إن آدم وحواء عليهما السلام لعلهما كانا يخرجان إلى باب الجنة، وإبليس كان يقرب من الباب ويوسوس لهما.

ورابعها: وهو قول الحسن: أن إبليس كان فى الأرض، وأوصل الوسوسة إليهما فى الجنة. قال بعضهم: هذا بعيد؛ لأن الوسوسة كلام خفى، والكلام الخفى لايمكن إيصاله من الأرض إلى السماء.

واختلفوا من وجه آخر، وهو أن إبليس هل باشر خطابهما؟ أو يقال: إنه أوصل الوسوسة إليهما على لسان بعض أتباعهما. [٧٠]

إن هذه الروايات تستهوى العامة، ويميل إلى تصديقها كثير من علماء الدراسات الدينية، بل يكررونها فى أبحاثهم، لكن العقل الواعى يقف عندما ذكره القرآن الكريم فى العديد من الآيات ليحاول استخلاص الأهداف من ذكر القرآن لها، وقد حاولت ذلك، فتوصلت إلى ما يلى:

١. أنه ينبغى على الإنسان أن يدرك تحديد المباح له، فلا يظن أن ما فى الوجود - إذا كان الله قد سخر له - ملكاً له، يستطيع أن يتصرف فيه بحرية، بل لابد أن يعرف أن حريته لها حدود، وما أبيح له الاستمتاع به له حدود أيضاً، وبذلك يتربى على التصرف فيما له،

---

٧٠) الرازى جـ ١ صـ ٣١٣.

والابتعاد عما ليس له حق فيه، فإذا أدرك ذلك سارت الأمور فى المجتمع سيراً طبيعياً، إذ يلتزم بما حدد له، فلا يتعداه، ولا يتجاوزه، وبذلك يضمن لنفسه هو أيضاً حقوقه المشروعة، لأن الآخرين سوف لا يسلبونها منه، وذلك إذا راعى كل إنسان ماله وما عليه.

٢. أن هناك دوافع تدفع الإنسان إلى التعدى على ما ليس له، فيرتكب إثماً فى حق نفسه وإزاء الآخرين، وهى، وإن كانت فى نفس الإنسان، إلا أن ما يحركها عوامل خارجية، أبرزتها قصة آدم فى وسوسة الشيطان له ولزوجته، ولا يكون لهذا تأثير، إلا إذا صورت للإنسان أن ما يتمناه سوف يتحقق، لو أقدم على هذا العمل الذى تزينه له.

فانحراف الإنسان ينبع من ثلاثة أشياء: رغبة كامنة فى النفس، وتأثير خارجى، وأمل يريد تحقيقه، ولا يستقيم الإنسان فى سلوكه إلا إذا هذب هذه الرغبات الكامنة فى النفس، وأدرك أنه لا ينبغى أن ينساق وراء كل دعوة تدعوه إلى سلوك طريق ما، إلا إذا كان ذلك فى حدود ما رسم له، وأيقن أن ليس كل ما يتمناه المرء قابلاً للتحقيق، فيحصر أمانيه فى حدود الجائز، ولا يسبح فى مجال الخيال، الذى لا يجنى الإنسان من ورائه إلا الندم والحسرة على ما ارتكب من آثام فى سبيل الحصول على ما يتنافى مع طبيعته وتكوينه البشرى.

٣. أنه يجب على الإنسان فى هذه الحياة أن يحترس من الشيطان وأعوانه، لأنهم أعداؤه، يريدون به الشر، ويسعون فى غوايته حتى يخسر الدنيا والآخرة، كما ينبغى عليه أن يبتعد عن كل الأشرار، لأن لا يجنى من القرب منهم إلا الخسران والهلاك، وصدق رسول الله ﷺ حين يقول: " **مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب**

المسك وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك، إما أن تشتريه، أو تجد ريحه، وكير الحداد: يحرق بيتك أو ثوبك، أو تجد ريحاً خبيثة ".[٧١]

وعليه، فلم يكن القصد من ورود قصة آدم فى القرآن الكريم سرداً تاريخياً، وإنما جاءت للعظة والاعتبار، وللتعليم والهداية، فحوار الله مع الملائكة حول خلقه، يعلمنا التسليم لما يريد، لأننا لا نعلم سر إرادته.

وأمره الملائكة بالسجود لآدم، يوضح لنا مكانة آدم فى هذا الكون، وأن هذه المنزلة لم ينلها إلا لأن الله نفخ فيه من روحه.

وعقاب الله إبليس يؤكد لنا أن من يرتكب إثماً لابد من عقابه، مهما كانت منزلته ودرجته.

وتحريم الله على آدم الأكل من شجرة معينة تعليم لنا بأنه ليس كل شيء مباحاً، بل هناك حدود لهذه الإباحة، وهو الأمر الذى تسير عليه سنن الحياة فى المجتمعات البشرية.

ووقوع آدم فى الخطأ، وإبلاغه بأن الشيطان عدو له، إشارة إلى ما ينبغى على الإنسان عمله من الحرص، حتى لا يرتكب المعاصى.

هذه هى الأهداف التى من أجلها جاء الحديث عن آدم فى القرآن الكريم، وماعداها من تاريخ حياته على الأرض، فلم يذكر القرآن الكريم شيئاً مما حدث له، لأنها أمور عادية ليس فيها ما يلفت النظر، فلو تحدث عنها لخرج عن كونه كتاب هداية، وتحول إلى كتاب تاريخ، تسجل فيه أحداث السابقين بغثها وسمينها، وهو ليس كذلك، لأنه لم ينزل على محمد ﷺ ليعلمه التاريخ، ولكن

---

٧١) صحيح البخارى جـ ٢ صـ ٧٤١ رقم ١٩٩٥

ليبلغه ما يساعد الناس على اتباع طريق تكون فيها سعادتهم فى الدنيا، وفلاحهم فى الآخرة.

وردت كلمة: " **الشيطان** " فى ثمان وستين آية، فى مقابل إحدى عشرة آية وردت فيها كلمة: " **إبليس** "، تسع منها جاءت فى سياق الحديث عن عدم سجود آدم، وواحدة مضافة إلى جنوده بأنهم سيلقون فى جهنم مع الغاوين، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٤ - ٩٥]، والأخرى فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[سبا: ٢٠]، كذلك لم تنسب غواية إبليس لآدم إلا فى آيتين اثنتين، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحجر: ٢٨ - ٤٤] وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ

يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص: ٧١ - ٨٣]

وتربصه لبنى آدم فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤ - ١٧] بل إنه عقب هذه الآيات نسبت الوسوسة للشيطان، ولم تنسب لإبليس، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠ - ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٦١ - ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ

ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ [طه: ١١٦ – ١٢٠]

ومن الجدير بالذكر أن كلمة: " **إبليس** " انفردت – تقريباً – بورودها عند الحديث عن خلق آدم، وأمر الله الملائكة بالسجود له، وامتناع إبليس عن إطاعة هذا الأمر، أما غواية بنى آدم ودفعهم إلى معصية الله، وارتكابهم الفواحش والآثام، فنسبت كلها – إلا ما ورد فى سورتى الحجر وص – إلى الشيطان، حتى ما ورد فى هاتين السورتين، فهما بمثابة تهديد من إبليس بأنه سينتقم من آدم وذريته، وذلك بغوايتهم، وحثهم على ارتكاب المعاصى والآثام.

فما معنى هذا؟

ذكرت كلمة: " **الشيطان** " فى الأديان كلها، من لدن بدء الخليقة حتى ظهور الإسلام، مقرونة بالأعمال السفلية، والغواية، وبأن هذا الكائن، الذى أطلق عليه هذا الاسم فى جميع اللغات تقريباً، مصدر الانحراف عن طريق الله – أو عن طريق المعبود، أيًا كان وضعه فى الأديان الأرضية والبدائية –، وسبب كفران الإنسان نعمة الخالق عليه.ولم يخل إنسان – مهما بلغ ورعه وتقواه – من الوقوع – ولو للحظة – فى حبائله، وإطاعته فيما يوسوس له به.... حتى ذهب بعض الفلاسفة إلى أن الشيطان ليس كائناً منفصلاً عن الإنسان، وإنما هو بمثابة غريزة من غرائزه؛ فطبيعته مركبة من جانبين: خير وشر، فإن تغلب عنصر الخير على الشر كان إنساناً طيباً مؤمناً، وإن تغلب العنصر الثانى صار شريراً، فكل إنسان شيطانه بداخله وليس كائناً خارجاً عنه، قد يظهر ويبدو، يؤثر فى سلوك الإنسان، بعوامل البيئة: من تعليم وتربية وظروف عامة تحيط به.

وقد مال بعض المسلمين إلى هذا الرأى، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى:

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف: ٥٣]، فالذى يأمر الإنسان بالانحراف، وارتكاب أعمال ضد نفسه، وضد مجتمعه، إنما هى تلك النفس المستقرة فى ذاته، أى أن كل إنسان شيطانه بداخله.

السِّحْـــر

سَحَرَه: يَسْحَره، سِحْرًا: خدعه (أى عمل له السحر)، أو استماله، وفتنه، وسلب لُبَّه، والسحر: الخديعة، قال لبيد:

فإن تسألينا: فيم نحن؟ فإننا * عصافير من هذا الأنام المُسَحَّر

والسحر: الفساد، فطعام مسحور: إذا أُفْسد عَمَلُه، وقيل طعام مسحور: مفسود، ونبت مسحور: مفسود. وكل عمل لَطُفَ مأخذُه ودقّ فهو سِحْر، والجمع أسحار، وسُحور، وصفة المذكر: ساحر، وتجمع على: سَحَرَة، وسَحَّار، وسُحَّار. وصفة المؤنث: ساحرة، وتجمع على ساحرات، وسَوَاحر. (**والسِّحْر**): البيان فى فطنة، ومنه قول رسول الله ﷺ: " **إن من البيان لسحراً** ".[٧٢] وإنما كان بعض البيان سحراً، لأنه يروق للسامعين، ويستميل قلوبهم، ويغلب على نفوسهم، ويحوِّل الشيء عن حقيقته، ويصرفه عن وجهته. قال الأزهرى: وأصل السحر: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، فكأن الساحر — لما أرى الباطل فى صورة الحق، وخَيَّلَ الشيء على غير حقيقته — قد سحر الشيء عن وجهه، أى صرفه. و (**السَّحْرُ**) و (**السَّحَرُ**): آخر الليل قبيل الصبح، وقيل: من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر. و (**السَّحُور**): طعام السَّحَر وشرابه، قال الأزهرى: السَّحُور: ما يُتَسَحَّر به وقت السَّحَر من طعام، أو لبن أو سَوِيقُ.

والسحر هو الأخذة وكل ما لطف مأخذ ودق. وقيل السحر هو تصور الباطل بصورة الحق. وقال علماء الشرع هو ما يستعان فى تحصيله بالتقرب إلى الشياطين بما لا يقدر عليه الإنسان. وقال ابن خلدون فى مقدمته: هو علم

---

٧٢) صحيح البخارى جـ ٥ صـ ١٩٧٦ رقم ٤٨٥١.

بكيفية الاستعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات فى عالم العناصر، إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية، والأول هو السحر، والثانى هو الطلسمات. [٧٣]

تعتبر كلمة السحر من أقدم الكلمات اللغوية وأوسعها انتشاراً؛ إذ استخدمتها كل الشعوب، وخاصة البدائية منها، وكلمة " magie " الإنجليزية مشتقة من الكلمة اليونانية " mageia " ومن الكلمة اللاتينة " magia " التى استخدمها الكتاب الكلاسيكيون لوصف ما كان فى جعبة المجوس من أهل فارس من علم سرى وممارسة مستخفية على الآخرين، وقد ارتبطت كلمة "مجوس = magi" اللاتينية بتاريخ طويل يرتد فى أصله إلى قبيلة فارسية قديمة تخصصت فى عديد من المناشط التعبدية. وثمة نزاع حول ما إذا كان المجوس منذ البداية تابعين لزرادشت وأول المريدين له. والواقع أنه منذ القرن الأول الميلادى إلى ما بعده استخدمت كلمة " مجوس " للإشارة إلى السحرة والراجمين بالغيب أساساً من بابل، وقد اشتهروا بأشكال مختلفة من الحكمة. ولكن بانهيار الإمبراطورية الفارسية صارت هناك تفرقة بين المجوس الفارسيين الذين نيطوا بمعرفة دينية عميقة وبين المجوس البابليين الذين اعتبروا غالباً من السحرة المشعوذين. [٧٤] والواقع أن المعتقدات الدينية والمعايير الأخلاقية الفارسية تعزى ولو جزئياً على الأقل إلى تعاليم زرادشت التى حفظ بعضها فى " الأفستا Avesta " وهو الكتاب المقدس للفارسيين القدماء والتراث الأدبى العريق الوحيد لإيران القديمة. وترجع أقدم النصوص الموجودة بالأفيستا إلى عام ١٢٥٨م. ولقد تضمنت الأفيستا أيضاً قدراً كبيراً من الطقوس ووسائل التطهر

---

٧٣) دائرة معارف القرن العشرين: محمد فريد وجدى

٧٤) Encyclopaedia Britanica ١٩٦٥, vol. ١٤

وتنظيمات تفصيلية للحياة اليومية، ولقد اعتبر زرادشت فيما بعد المؤسس للسحر، كما اعتبر الكهنة الفارسيون أو المجوس الرعيل الأول من السحرة والمنجمين. [٧٥]

أما بالنسبة لمجوس بابل، فإن الكتابات الدينية بسهل " شينار Shinar "، أو تلك الخاصة ببابل وآشور فيما بعد، قد تشكلت من طقس تعبدى فى هذه الحياة، وليس بعد الموت، وكذا التنبؤ بالمستقبل فى ضوء ما تجلى عنه حركات الأجسام السماوية وأكباد الحيوانات المقدمة كذبائح للآلهة. [٧٦]

وقد ذهب البعض من أمثال " بلوتارخ Plutarech " (نحو ٥٠ -١٢٥م) إلى أن السحر قد تضمن فيما بعد تقديم الذبائح إلى " أهريمان Ahriman " خالق البشر وفق المعتقد المجوسى، ومن ثم فقد تلبس لفظ " سحر " بدلالة الشر وصار محفوفاً بالريبة، وصار مرتبطاً أشد الارتباط " بالفنون السوداء blac arts " بمظاهرها الكالحة الكثيرة، وبالأعمال السحرية التى تحاك ضد الآخرين من جانب الأشرار. ولقد انخرط تحت السحر أيضاً استخدام التمائم والحصول غير المشروع على ما سيأتى به المستقبل عن طريق الرجم بالغيب، وأيضاً استحضار الأرواح الخاصة بالموتى واستشارتهم فى أمور الحياة. [٧٧]

فالسحر قديم قدم الإنسانية، الأمر الذى جعله ينتقل من العالم الوثنى إلى العالم المسيحى. لقد دأب الإنسان منذ فجر التاريخ على ممارسة السحر باعتباره وسيلة سيطرة على الطبيعة مثل: إسقاط الأمطار، أو حدوث التحاريق، أو إثارة

---

٧٥) Lynn Thorndike, A Short History of Civilisization, P. ٩٦ نقلاً عن يوسف ميخائيل أسعد: السحر والتنجيم صـ ٦٤

٧٦) المصدر السابق صـ ٦٤

٧٧) المصدر السابق صـ ٤١

الرياح والزوابع، وكسبب فى الأمراض والحوادث المميتة، التى تصيب الإنسان والزرع والضرع.

اتخذت الكنيسة منذ البداية موقفاً معادياً للسحر وعملت كل ما تستطع لإبطال مفعوله السيء والشرير. وفى أواخر القرن التاسع أصدرت الكنيسة بعض القوانين الخاصة بكيفية معاملة السحرة، ومنحت هذه القوانين الأسقف المحلى فى توقيع الحرمان الكنسى على السحرة وطردهم من أسقفيته إذا لم يتوبوا وظلوا فى غيهم سادرين. ورغم أن الكنيسة أنحت باللائمة والتقريع على المسيحى الذى يؤمن بقدرة السحرة على استحضار الأرواح والشياطين، فإنها كانت فى بادئ الأمر تعتبر ممارسة السحر هرطقة. غير أن موقفها هذا لم يلبث أن تغير فى القرن الثانى عشر، فقد بدأت ترى فى اتصال السحر بالشياطين التشجيع على احترام هذه الشياطين، ومن ثم دعاها هذا إلى إعادة النظر فى السحر باعتباره ضرباً من ضروب الهرطقة. وبحلول منتصف القرن الثانى عشر درجت الكنيسة على اعتبار السحر نوعاً من عبادة الشياطين وتقديسها. وبعد مرور فترة من الزمن كانت الكنيسة تلاحق السحرة وتضطهدهم، ففى النصف الثانى من القرن الثالث عشر دُفِعَ بعض المحققين فى محاكم التفتيش إلى استقصاء بعض حالات السحر التى يعقد فيها الساحر صفقة مع الشيطان، وهى صفقة يعطى فيها الساحر صكه للشيطان مقابل أن يعطيه المتعة والقوة والقدرات الخارقة للطبيعة. وفى الفترة من ١٢٢٣- ١٢٣٣ كلف البابا جريجورى التاسع كونراد جورج بالتصدى للهراطقة فى ألمانيا، فأبلغ كونراد هذا البابا بانتشار هرطقة تدعو إلى عبادة الشيطان، وطلب منه ضرورة التدخل لاستئصالها. إننا إزاء موقف كنسى أقل تشدداً فى الفترة بين ١٢٥٨، ١٢٦٠ حيث ينصح البابا ألكسندر الرابع بعض المحققين فى محاكم التفتيش ممن التمسوا مشورته أن يبذلوا

قصارى جهدهم فى اكتشاف الهرطقة والضرب عليها بيد من حديد، ولكن مع ضبط النفس فى حالة السحر إلا إذا كانت الحالة شديدة الوضوح، ويستحيل السكوت عليها، ثم عادت الكنيسة إلى اتخاذ موقف من السحر أكثر تشدداً فى عام ١٤٨٤م عندما أدخل البابا أنسونت الثامن تعديلات على الموقف البابوى المتساهل تجاه السحر، وأصدر تعليمات مشددة إلى محاكم التفتيش ألا تأخذهم أدنى شفقة أو رحمة بالمتعاملين مع الشيطان. [٧٨]

ومن هنا ارتبطت المبادئ السحرية بالدين، واتصلت به اتصالاً وثيقاً، وهى فى الوقت نفسه لا تنفصل عن ظاهرة المعجزة، بمعنى أن كلاً منهما يبدو تغييراً للظواهر الطبيعية.

ورغم هذا يجب أن نفرق بين الدين والسحر، فالسحر — بمعناه الحقيقى — شيء مكتسب، أى قواعد يتعلمها الممارس له، وهذه القواعد تتركز على قوانين عقلية، أبسط ما يقال عنها: " إنها درجة قبل العلم " فالواقع أنها مبادئ جوهرية وأساسية تماماً للفكر الإنسانى. وإذا تم تطبيقها بطريقة سليمة فإنها تؤدى إلى العلم، بينما تطبيقها بطريقة غير سليمة و " غير مشروعة " يؤدى إلى السحر، وهو الأخ غير الشرعى للعلم. ولذا فإن من البديهى — بل إنه قد يكون مجرد تكرار للمعانى — أن نقول: إن السحر بأشكاله المختلفة هو بالضرورة علم زائف عقيم، لأنه لو حدث أن صدق وأثمر لخرج عن دائرة السحر. ولقد اهتم الإنسان منذ أقدم العصور بالبحث عن القواعد العامة التى يستطيع بها أن يخضع نظام الظواهر الطبيعية لصالحه الخاص، واستطاع خلال بحثه الطويل أن يقوم بتجميع عدد كبير من تلك القواعد التى تتفاوت فى الأهمية والقيمة. فأما

---

٧٨) مجلة القاهرة / العدد ١٥٠ مايو ١٩٩٥م صـ ١٢٣-١٢٤

القواعد الصحيحة أو الذهبية فإنها تؤلف مجموعة العلوم التطبيقية التى نسميها بالفنون، وأما القواعد الزائفة فإنها تؤلف السحر." [٧٩]

فالسحر ملكة يملكها بعض الأذكياء، وتفتقر بسبب طبائعهم المحدودة إلى إضفاء ثوب الدين على ما يقومون به من أعمال تبدو خارقة للعادة، فيربطون بينها وبين من يملك تلك القوة الغيبية التى تتحكم فى قوى الطبيعة، ألا وهو المقدس. ولما كان الإنسان البدائى يحاول إرضاء المقدس، وصلته به أقرب عن طريق الساحر، اختلط السحر بالدين، إلا أنه غالباً ما يكون السحر أحط درجة من الدين؛ وذلك عندما يساء استعمال العبادات الدينية، إذ تفقد روحها، ولا تؤدى إلى الهدف الذى فرضت من أجله، فتتردى إلى شعوذة يمسك زمامها الدجالون، ومن يلهثون وراء المال والجاه عن طريق إرضاء عواطف العامة الذين لا يفقهون معنى العبادات وروحها.

فهو يعتبر من الفنون المنتشرة بينها على نطاق واسع، وهو — كما يعتقدون — يجرى على يد من عنده قوة خارقة تمكنه من ممارسة هذا الفن، مصحوباً بطقوس معينة بغية المساعدة لتحقيق رغبة، أو لإلحاق ضرر بالآخر وهو أنواع كثيرة، منها على سبيل المثال: سحر يتعامل مع الطقس لاستدرار المطر، أو تحويله إلى منطقة أخرى، وكذلك للوقاية من غضب الطبيعة، وسحر الإخصاب، وسحر الهلاك، وسحر الشفاء، وسحر التوسل...و...و...إلخ. وكثيراً ما يخضع المتدينون للساحر متوسلين إليه أن يناشد القوة الخارجة المتصل بها لتحقيق ما يريدونه، كما أن هناك سحر الأطباء والكهنة، وهو فى كل حالاته أقرب إلى الشعوذة (أو الجلا جلا = الجلجليون) منه إلى التفكير

---

٧٩) فريزر: ٢١٧

العقلى، لأن العقل يرفض كل عمل يدعى صاحبه القدرة على تحويل الطبيعة، أو إحداث ظاهرة دون وجود أساسها المقبول عقلاً. ومن هنا يرى المفكرون أن السحر عمل تُقُرِّب فيه إلى الشيطان وبمعونة منه.

لقد دأب الإنسان منذ فجر التاريخ على ممارسة السحر باعتباره وسيلة سيطرة على الطبيعة، مثل إسقاط الأمطار، أو حدوث التحاريق، أو إثارة الريح والزوابع، وكسبب فى الأمراض والحوادث المميتة التى تصيب الإنسان والزرع والضرع، ولذا شاع بين المجتمعات الوثنية، كما انتشر فى المجتمعات التى تدين بالأديان السماوية.

والسحر نوعان:

١ – **السحر التشاكلى أو سحر المحاكاة:** وهو يتمثل فى اعتقاد الساحر أن ما يلحقه بالشبيه يحدث مثله للأصل، ويظهر هذا جلياً فى المحاولات التى يقوم بها كثير من الناس فى مختلف العصور لإلحاق الأذى أو الدمار بأعدائهم عن طريق إيذاء أو تدمير صورهم، اعتقاداً منهم أن ما يلحق بالصورة من شر وضرر يلحق بصاحبها، وأنه حين يتم تدمير الصورة يموت الأصل بالضرورة. ويمكن أن نذكر هنا جانباً يسيراً من الأمثلة الكثيرة التى تظهر فى الحال مدى انتشار هذه العادة فى العالم واستمرارها الفريد خلال الزمن. فلقد قامت هذه الممارسات منذ آلاف السنين عند سحرة الهند القديمة وبابل ومصر، وكذلك فى بلاد اليونان وروما، كما أنها لا تزال شائعة حتى الآن عند الجماعات الهمجية الخبيثة الشريرة فى استراليا وإفريقيا واسكتلندا، فالهنود الحمر فى أمريكا الشمالية يعتقدون أن رسم صورة الشخص فى الرمل أو الرماد أو الطين أو الحصول على أى جزء من جسمه ونحسه بقطعة حادة من الخشب، أو إلحاق أى نوع آخر من الأذى به يستتبع إلحاق أذى مماثل بالشخص ذاته الذى تمثله هذه الصورة.

وعلى ذلك فحين يريد شخص عند هنود " أوجبواى Ojebway " إيذاء أحد أعدائه فإنه يصنع له تمثالاً صغيراً من الخشب، ثم يغرز إبرة فى رأسه، أو قلبه، أو يطلق عليه سهماً، اعتقاداً منه أن عدوه سوف يشعر بآلام حادة نفاذة فى ذلك الجزء من جسمه الذى يقابل الموضع الذى أصابته الإبرة أو السهم من التمثال. أما إذا كان يريد قتل عدوه مباشرة وفى لتو واللحظ فإنه يحرق التمثال أو يدفنه وهو يردد بعض الصيغ السحرية. كذلك كان الهنود الحمر فى بيرو يصنعون من الدهن المخلوط بالحنطة تماثيل على هيئة الأشخاص الذين يكرهونهم أو يرهبونهم ويحرقونها فى الطريق الذى يسلكه هؤلاء الأعداء، ويعرف ذلك عندهم باسم " حرق الروح ". [٨٠]

٢ – السحر الاتصالى: وهو يقوم على فكرة أن الأشياء المتصلة تظل – حتى بعد أن تنفصل تماماً: أحدهما عن الآخر – فى علاقة تعاطف، بحيث أن ما يطرأ على أحدهما يؤثر بالضرورة تأثيراً مباشراً على الآخر.... وربما كان أشهر مثل للسحر الاتصالى هو التعاطف السحرى الذى يُفْتَرَض وجوده بين الإنسان وأجزاء جسمه كالشعر والأظافر، حتى بعد أن تنفصل هذه الأجزاء عنه، بحيث أن وقوع شعر شخص ما أو أظافره فى يد شخص آخر يجعله خاضعاً لإرادته، مهما بعدت المسافة بينهما. وتشيع هذه الخرافة فى العالم كله.

ويتمثل أحد التطبيقات الغريبة لنظرية السحر الاتصالى فيما يتصوره كثير من الناس من وجود علاقة قوية بين الشخص الجريح ومصدر الجرح، بحيث أن كل ما يطرأ على ذلك المصدر، أو ينشأ عنه يكون له بالضرورة تأثير مماثل فى

---

٨٠) الواقع أن هذا الأسلوب من السحر شائع جداً فى كل المجتمعات المعروفة، مع خلاف فى درجة الممارسة والتطبيق. ويوجد هذا الأسلوب فى مجتمعاتنا كما هو الحال مثلاً فى صنع " عروسة " من الورق وغرزها بالإبر فى عدة مواضع، ثم إحراقها لإبطال الجسد. [أحمد أبو زيد فى هامش صـ ١١٠ من كتاب: الغضن الذهبى]

الشخص المريض نفسه، سواء كان ذلك التأثير مفيداً أو ضاراً. ويذكر لنا " بلينى Pliny " أنه لو أصاب شخص ما شخصاً آخر بجراح، ثم شعر بالأسى لما فعل، فما عليه إلا أن يتفل على اليد التى سببت الجرح فيزول الألم فى الحال. وفى ماليزيا يبذل أصدقاء الرجل الجريح جهدهم ليحصلوا على السهم الذى أصابه، ثم يضعونه فى مكان رطب، أو يدفنونه بين أوراق الشجر الندية، فيخفف ذلك من التهاب الجرح ويبرأ بعد فترة وجيزة من الزمن، وذلك فى الوقت الذى يعمل فيه العدو الذى أطلق السهم كل ما فى وسعه لكى يزيد الجرح سوءاً، كأن يشرب هو وأصدقاؤه السوائل و الأشرية الساخنة الملتهبة، أو يمضغ الأوراق الحريفة، أملاً فى أن يزيد ذلك من التهاب الجرح وتهيجه. بل إنهم يضعون القوس أيضاً بالقرب من النار، لكى يحققوا نفس الغاية.

وربما كانت العلاقة التعاطفية المفروض وجودها بين الرجل والسلاح الذى جرحه ناشئة من فكرة أن الدم الذى يلوث السلاح يستمر فى الإحساس والتجاوب مع الدم الذى يسرى فى جسم الجريح. ولمثل هذا السبب تحرص جماعات " البابوان Papuans " فى " توموليو Tumleo " — وهى إحدى الجزر القريبة من غينيا الجديدة – على أن يلقوا فى البحر بالضمادات الملوثة بالدماء، بعد أن تكون قد استخدمت فى تضميد الجروح، وذلك حتى لا تقع فى أيدى أعدائهم فيستخدمونها فى ممارسة السحر للإضرار بهم وإيذائهم. ولقد حدث ذات مرة أن جاء رجل إلى مقر إحدى الإرساليات التبشيرية هناك والدم يترف من فمه، بينما كانت زوجته تتبع خطواته، وتبذل كثيراً من الجهود المضنية، لكى تجمع كل الدم الذى نزف منه لإلقائه فى البحر. وعلى الرغم من كل ما يبدو من شذوذ هذه الفكرة وغرابتها بالنسبة لنا، فقد تكون أقل غرابة من الاعتقاد فى التعاطف السحرى بين الشخص وملابسه، بحيث أن ما يحدث

للملابس ينعكس بالضرورة على صاحبها، مهما كان بعيداً عنها فى ذلك الوقت. مثال ذلك: أن الساحر فى قبيلة " وتجوبالوك Wotjobaluk " فى فكتوريا قد يحصل على قطعة من فراء الأبسوم التى يستخدمها أحد الأشخاص ويشويها ببطء على النار، فيشعر صاحبها بالمرض بداخله أثناء ذلك. فإذا أمكن إقناع الساحر بأن يوقف مفعول سحره فإنه يسلم قطعة الفراء إلى أصدقاء المريض، ويطلب إليهم أن يضعوها فى الماء كما لو كانوا يطفئون النار، وبمجرد أن يتم ذلك يشعر المريض بالراحة والهدوء حتى يشفى تماماً.

وعند السلاف الجنوبيين تحاول الفتاة أن تجمع التراب الذى انطبعت فيه آثار أقدام الرجل الذى تعشقه، ثم تضعه فى آنية الزهور، وتزرع فيه إحدى أزهار القطيفة الذهبية (الماريجولد Marigold) — وهى من الزهور التى لا تذبل أبداً — أملاً فى أن ينمو حبها دائماً فى قلبه فلا يذبل أبداً، مثلما تنمو القطيفة الذهبية وتزدهر. وينتقل مفعول هذه التعويذة الغرامية عن طريق التراب الذى داس عليه.

ومع أن آثار الأقدام هى أوضح الآثر التى يمكن للجسم أن يتركها وراءه، فإنها ليست الشيء الوحيد الذى يمكن الاستعانة به فى التأثير السحرى على الإنسان؛ فالأهالى الوطنيون فى جنوب غرب استراليا يعتقدون أنه من السهل إلحاق الأذى بأى شخص عن طريق دفن بعض شظايا الكوارتز أو الزجاج أو غير ذلك من الأجسام الحادة فى الأثر الذى يطبعه جسمه أثناء الاسترخاء، فتسرى الخاصية السحرية التى تكمن فى تلك الأجسام الحادة إلى جسم الضحية وتسبب له آلاماً مبرحة يردها الأوربيون إلى الروماتيزم. وهذا يفسر لنا السبب فى أن الفيساغوريين كانوا يعتبرون من أهم المبادئ التى يجب على المرء التمسك بها أن يقوم بترتيب فراشه بمجرد الاستيقاظ من النوم، حتى تختفى تماماً كل

الآثار التى طبعها جسمه على الفرش. فليست هذه القاعدة – بكل بساطة – سوى إجراء وقائى ضد السحر، وهى بذلك جزء من قانون كلى عام يصدق على جميع القواعد والمبادئ الخرافية التى كان القدماء ينسبونها إلى فيساغورس، وإن لم يكن ثمة أدنى شك فى أنها كانت معروفة لدى الأسلاف الهمج الذين انحدر منهم اليونانيون القدماء قبل أن يولد فيثاغورس بعهد طويل.[٨١]

ويمكن تصنيف السحر من ناحية التأثير إلى ثلاثة أنواع رئيسية: سحر إنتاجى، وسحر وقائى، وسحر تحطيمى أو هدمى.

فالسحر الإنتاجى بما له من أهمية طقسية يهتم فى المقام الأول بالإتيان بنتائج إيجابية وفيرة، كأن يأتى بمحصول أوفر، أو حصيلة أكبر من صيد السمك... إلخ، وهذا النوع من السحر قد يساعد فى تنظيم الجانب التقنى من النشاط، كما أنه يعمل على حث العاملين لبذل جهد أغزر، كما يعطيهم ثقة أكبر فى أن جهودهم المبذولة سوف تضمن لهم جزاءً عظيماً.

أما السحر الوقائى، وهو السحر الذى يستهدف إبعاد الخطر وسوء الحظ أو المرض، فإنه قد يعطى المشاركين فيه الثقة الضرورية للنجاح، أو للطمأنينة بمايعمل بلا شك على الحصول على طاقة نفسية دفاعية عظيمة.

أما النوع الثالث، وهو السحر التحطيمى، أو الهدمى.... وهو ما يعتقد أنه ينبع من هبة خاصة أو استعداد معين لدى الفرد. وهو كثيراً ما يكون مصدراً للإشراف أو التحكم الاجتماعى، وذلك لأن أولئك الممسكين بزمام السلطة بالمجتمع يخشون من استخدام قوة هذا النوع من السحر ضدهم، كما أنه من جهة أخرى قد يصير وسيلة تنفسية، وذلك لأنه يسمح لأى شخص بأن يحطم

---

٨١) راجع: سير جيمس فريزر: الغصن الذهبى، صفحات: ١٠٩-١١٠، ١٨١، ١٩٠-١٩١، ١٩٦، ٢٠٠، ٢٠٢-٢٠٣

عدوه فى نطاق خياله، ومن ثم فإنه يتحاشى استخدام العنف بيديه، لهذا فإن السحر قد احتل مكانة هامة بغالبية المجتمعات البدائية، وقد ظل محتفظاً بدرجة معينة من التأثير، على الرغم من التحديات التى تصادفه اليوم فى ظل الحضارة الإنسانية المادية. [٨٢]

كان موقف الكنيسة من السحرة متأرجحاً، فقد تشددت فى محاربتهم فى بادئ الأمر، وعملت كل ما تستطيع لإبطال مفعول السحر السيء والشرير؛ إذ أصدرت فى أواخر القرن التاسع الميلادى قراراً بتوقيع الحرمان الكنسى على السحرة، إلا أنها كانت أقل تشدداً فى الفترة بين عامى ١٢٥٨م و1260م؛ حيث نصح البابا " ألكسندر " الرابع بعض المحققين فى محاكم التفتيش أن يبذلوا قصارى جهدهم فى اكتشاف الهرطقة والضرب عليها من حديد، مع ضبط النفس فى حالة السحرة. ثم عادت الكنيسة إلى اتخاذ موقف من السحرة أكثر تشدداً فى عام ١٤٨٤م، عندما أدخل البابا " أنسونت " الثامن تعديلات على الموقف البابوى المتساهل تجاه السحرة، وأصدر تعليمات مشددة إلى محاكم التفتيش بألا تأخذهم أدنى شفقة أو رحمة بهم، وذلك استناداً إلى تشدد فى الكتاب المقدس ضد السحرة، فقد هددهم، وهدد من يثقون فيهم بالعقاب الشديد، وأوضح أن أعمال السحرة مرفوضة أمام الله، وأن الله يستاء ممن يتعاملون معهم، فيقول فى سفر ملاخى: "..... وَأَكُونُ شَاهِدًا سَرِيعًا عَلَى السَّحَرَةِ وَعَلَى الْفَاسِقِينَ وَعَلَى الْحَالِفِينَ زُورًا...." [٣: ٥]

كما بيَّن الكتاب المقدس أن مثل هذه الأعمال نوع من النجاسة، وعادة ما يعيش القائمون بهذه الأعمال مرفوضين من الله، حتى يتوبوا، ويرجعوا عنها،

---

٨٢) Encyclopaedia Britanica vol.١٤ ١٩٦٥

وقد كانت نهاية حياة الكثيرين منهم نهاية مؤسفة، تتفق مع البعد عن الله، والتعاون مع الشيطان؛ فبعضهم مات مقتولاً بيد بعض الناس الذين أضيروا من أعمالهم، والبعض الآخر صرعته الشياطين، أو أفقدته النطق، لأنه رفض لها طلبها.

ويتضح من هذا: أن المسيحية رفضت السحر، واعتبرته من الأعمال التى لا تتناسب مع شريعتها، التى كان من أهم دعائمها التى قامت عليها الدعوة إلى محبة الله. [٨٣]

٨٣) سليم صـ ٨٨ نقلاً عن مصطفى الخشاب: تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية، القاهرة، لجنة البيان العربى ـ ١٩٥٣ صـ ٢٢٤.

موقف الإسلام من السحر

والسحرة

يرى كثير من علماء المسلمين أن السحر خدعة ولا واقع له، ولذا قال الله تعالى على لسان فرعون: ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾ [طـه: ٦٣]، أى مخادعان، يريدان أن يخرجاكم بخداعهما، فليس معهما حقيقة، ولا واقعية لما يدعيانه.

فالسحر هو تخييل فقط ولا حقيقة له، وهذا هو اختيار أبى جعفر الاسترابادى من الشافعية، وأبى بكر الرازى من الحنفية، وابن حزم الظاهرى، ووافقهم طائفة من العلماء، منهم رشيد رضا، حيث يقول: " المعنى الجامع للسحر أنه أعمال غريبة من التلبيس والحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم بأسبابها، فمتى عرف سبب شيء منها بطل إطلاق اسم السحر عليه، ولذلك كان المعارضون للرسل يعدون ما يظهر على أيديهم من معجزات من قبيل السحر، ويجعلون هذا مانعاً من دلالتها على صدقهم ومن تأييد الله تعالى لهم، لأن السحر صنعة تكتسب بالتعليم والتمرين، فيمكن لكل أحد أن يكون ساحراً، إذا أتيح له من يعلمه السحر ".

فلو استعرضنا آيات القرآن الكريم لتبين لنا الأسباب التى دعت المكذبين إلى اتهام الرسل عليهم السلام بالسحر، نذكر منها:

١. الكفر، قال تعالى مبيناً ذلك: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس: ٢]

٢. الطغيان والعلو والاستكبار، قال تعالى مبيناً ذلك: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ

مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٢ – ٥٣]

٣. الظلم، قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٧]

٤. الطمع وحب المال، يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الشعراء: ٤١]

٥. اتباع الهوى، يقول تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾ [القمر: ١ – ٣]

إذا أردنا أن نؤرخ لهذه التهمة، فليس هناك كتاب تاريخى يؤرخ لها بشكل دقيق مثلما يعطيها القرآن – وإن لم يكن كتاباً تاريخياً – حقها من العراقة والقدم والامتداد فى تاريخ الشعوب والمجتمعات الدينية، حيث يذكر أن هذه التهمة استعملت ضد كل الرسل الذين أرسلوا هداة إلى أقوامهم، أى بعبارة أخرى منذ أن تشكل أول مجتمع بشرى بعد نبى الله آدم عليه السلام، ومنذ أن بعث لذلك المجتمع الأول رسول هداية.

نعم، لقد تلقى جميع الرسل عليهم السلام هذه التهمة الظالمة من قِبَل خصومهم، فقد قال الله تعالى مشيراً إلى هذا العمق التاريخى لهذه المواجهة، وإلى عراقتها فى تاريخ المواجهات ضد رسله عليهم السلام: ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٢] [٨٤]

ذكر الرازى تسعة أنواع للسحر:

---

٨٤) قارن: www. Alsadrain.ccm/maowsoaa/Islamic/٦٥.htm

الأول: سحر الكلدانيين الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة، وهي السيارة، وكانوا يعتقدون أنها مدبرة العالم، وأنها تأتي بالخير والشر، وهم الذين بعث الله إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام مبطلاً لمقالتهم، ورادًّا لمذهبهم.....

الثاني: سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية، ثم استدل على أن الوهم له تأثير بأن الإنسان يمكنه أن يمشي على الجذع الموضوع على الأرض، ولا يمكنه المشي عليه إذا كان ممدوداً على نهر. قال وكما أجمعت الأطباء على نهي المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر، والمصروع إلى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران، وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام.....

الثالث: الاستعانة بالأرواح الأرضية، وهم الجن خلافاً للفلاسفة والمعتزلة.....

الرابع: سحر التخييلات والأخذ بالعيون، والشعبذة، ومبناه على أن البصر قد يخطئ ويشتغل بالشيء المعين دون غيره، ألا ترى هذا الشعبذة الحاذق يظهر على عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء بالتحديث ونحوه عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة، وحينئذ يظهر لهم شيئاً آخر، غير ما انتظروه، فيتعجبون منه جداً، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمله، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه لفطن الناظرون لكل ما يفعله.....وقال بعض المفسرين: إن سحر السحرة بين يدى فرعون إنما كان من باب الشعبذة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه: ٦٦]، فلم تكن تسعى فى الحقيقة.

الخامس: الأعمال العجيبة التى تظهر من تركيب آلات مركبة على النسب الهندسية، كفارس على فرسه فى يده بوق، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد... ومنها الصور التى تصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان، حتى يصرروها ضاحكة وباكية إلى أن قال: فهذه الوجوه من لطيف أمور التخايل، قال: وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل.

فالسحرة — كما قال بعض المفسرين — عمدوا إلى تلك الحبال فحشوها زئبقاً، ثم لما ألقيت تمدد الزئبق بتأثير الحرارة، فصارت تتلوى بسبب تمدد ما فيها من زئبق، فخيل إلى الرائى أنها تسعى باختيارها. قال الرازى: ومن هذا تركيب صندوق الساعات، ويندرج فى هذا الباب علم جر الأثقال بالآلات الخفيفة، قال: وهذا فى الحقيقة لا ينبغى أن يعد من باب السحر، لأن لها أسباباً معلومة يقينية، من اضطلع عليها قدر عليها....

السادس: من السحر الاستعانة بخواص الأدوية، يعنى فى الأطعمة والدهانات، قال: واعلم أن لا سبيل إلى إنكار الخواص، فإن تأثير المغناطيس مشاهد. قلت: يدخل فى هذا القبيل كثير ممن يدعى الفقر، ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص، مدعياً أنها أحوال له من مخالطة النيران ومسك الحيات، إلى غير ذلك من المحالات.

السابع: من السحر التعليق للقلب، وهو أن يدعى الساحر أنه عرف الاسم الأعظم، وأن الجن يطيعونه، وينقادون له فى أكثر الأمور، إذا اتفق أن يكون ذلك السامع ضعيف العقل، قليل التمييز، اعتقد أنه حق، وتعلق قلبه بذلك، وحصل فى نفسه نوع من الرعب والمخافة، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء...

الثامن: من السحر السعى بالنميمة، والتقريب من وجوه خفيفة لطيفة، وذلك شائع فى قلوب المؤمنين، فهذا حرام متفق عليه، فأما إن كانت على وجه الإصلاح بين الناس وائتلاف كلمة المسلمين، كما جاء فى الحديث: " **ليس بالكذاب من ينم خيراً** " [٨٥]، أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة، فهذا أمر مطلوب، كما جاء فى الحديث: " **الحرب خدعة** " [٨٦]، وكما فعل نعيم بن مسعود فى تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين قريظة " [٨٧]

قاوم الإسلام السحر والسحرة، فبين أنه فضلاً عن ضرره، فحكم ممارسته يرقى إلى درجة الكفر، يقول تعالى: ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٢]

وقد عد النبى ﷺ السحر من كبائر الذنوب، والموبقات التى تهلك الأمم قبل الأفراد، قال رسول الله ﷺ: " **إجتنبوا السبع الموبقات** "، أى المهلكات، قالوا: وماهى يارسول الله؟ قال: " **الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات** ". [٨٨]

وقد اعتبر بعض فقهاء الإسلام السحر كفراً، أو مؤدياً إلى الكفر، وذهب بعضهم إلى وجوب قتل الساحر، تطهيراً للمجتمع من شره.

---

٨٥) راجع البخارى جـ ٢ صـ ٩٨٥ رقم ٢٥٤٦

٨٦) راجع البخارى: باب الحرب خدعة جـ ٢ صـ ١١٠٢ رقم ٢٨٦٤

٨٧) بيومى صـ ٢١ – ٢٤. وراجع الرازى :التفسير الكبير جـ ٣ صـ ١٨٧ -١٩٣.

٨٨) البخارى جـ ٣ صـ ١٠١٧ رقم ٢٦١٥.

هاروت وماروت

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٢]

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية نصوصاً كثيرة، وحاصل هذه النصوص أن الشياطين فى عهد مُلْكِ سليمان عليه السلام كتبوا أصنافاً من السحر، ووضعوها تحت الكرسى الذى كان يجلس عليه النبى سليمان عليه السلام، فلما مات سليمان أخرج الشياطين هذه الكتب التى دوَّنوا فيها السحر، وأظهروها للناس، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يسوس الناس بهذا السحر، فرماه اليهود بالكفر وسبُّوه؛ لزعمهم أنه كان يعمل بالسحر، فأنزل الله هذه الآية يُبَرِّئُ فيها سليمان بن داود من السحر والكفر، مبيناً أن هذا السحر إنما هو من عمل الشياطين، وأن الشياطين هم الذين كفروا بسبب تعليمهم السحر للناس.[٨٩]

فمن هما هاروت وماروت؟

رُوِىَ أنهما مَلَكان أنزلهما الله من السماء إلى الأرض، وأذن لهما فى تعليم السحر، اختباراً لعباده، وامتحاناً بعد أن يبين لعباده أن ذلك مما يُنْهَى عنه على

٨٩) يومى صـ ١٦، وراجع الطبرى: جامع البيان فى تفسير القرآن جـ ١ صـ ٣٥٢ وما بعدها.

ألسنة الرسل [٩٠]، وقد امتثل هاروت وماروت لأمر الله لهما، فكان الرجل إذا

---

٩٠) نسج الفكر الإسلامي حولهما الأساطير ومن أشهرها مارواه الثعلبي، نوردها كاملة ليتبين للقارئ مدى تغلغل الجانب الأسطوري في الفكر الإسلامي، وهو ما رأينا أنه من الواجب علينا الإسهام في تنقية هذا الفكر من الخرافات التي انحدرت إليه من عقائد البدائيين وأفكارهم، قال الثعلبي: "..... إن الشياطين كتبوا السحر والنيرنجيات على لسان آصف في مدة زوال ملك سليمان: هذا ما علم آصف بن برخيا سليمان الملك، ثم دفنوها تحت مصلاه، ولم يشعر بذلك سليمان، فلما مات سليمان استخرجوها من تحت مصلاه، وقالوا للناس: ما ملككم سليمان إلا بهذه. قال السدي: وذلك أن شيطاناً تمثل على صورة إنسان، فأتى نفراً من بني إسرائيل، فقال: هل أدلكم على كنز لا ينفد أبداً؟ قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت كرسي سليمان، وذهب معهم فأراهم المكان، وقام ناحية، فقالوا له: أدن ! ، فقال: لا، ولكني ههنا، فإن لم تجدوه فاقتلوني، وذلك أنه لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسي إلا احترق، فحفروا، فوجدوا تلك الكتب؛ فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان كان يضبط الجن والإنس والشياطين والطير بهذا، ثم طار الشيطان وذهب. فأما علماء بني إسرائيل وصلحاؤهم فقالوا: معاذ الله أن يكون هذا علم سليمان، فإن كان هذ علمه، فقد هلك سليمان، وأما الجهال والسفلة فأقبلوا على تعلمه ورفضوا كتب أنبيائهم، فأنزل الله هذه الآية، إظهاراً لعذر سليمان، وبياناً لبراءته، فهذه قصة الآية.

وأما قصة هاروت وماروت، فقال المفسرون: إن الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة وذنوبهم الكبيرة، وذلك في زمن إدريس عليه السلام عيروهم بذلك، وأنكروا عليهم، وقالوا: هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء في الأرض، واخترتهم، فهم يعصونك، فقال تعالى: لو أنزلتكم في الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لفعلتم مثل ما فعلوا، قالوا: سبحانك ربنا ما كان ينبغي لنا أن نعصيك، قال الله تعالى: اختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض، فاختاروا هاروت وماروت، وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم. قال الكلبي: قال الله تعالى: اختاروا ثلاثة منكم، فاختاروا عزا: وهو هاروت، وعزابيا، وهو ماروت، وعزريائيل، وإنما غير اسمهما لما اقترفا من الذنب، كما غير الله اسم إبليس، وكان اسمه عزازيل، فركب الله تعالى فيهم الشهوة التي ركبها في بني آدم، وأهبطهم إلى الأرض، وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق، ونهاهم عن الشرك، والقتل بغير الحق، والزنا، وشرب الخمر.

أما عزريائيل فإنه لما وقعت الشهوة في قلبه، استقال ربه، وسأله أن يرفعه إلى السماء، فأقاله، ورفعه، وسجد أربعين سنة، ثم رفع رأسه، ولم يزل بعد ذلك مطأطئاً رأسه حياء من الله تعالى.

وأما الآخران فإنهما ثبتا على ذلك يقضيان بين الناس يومهما، فإذ أمسيا ذكرا اسم الله تعالى الأعظم، وصعدا إلى السماء. قال قتادة: فما مر عليهما شهر حتى افتتنا، وذلك أنه اختصم إليهما ذات يوم الزهرة، وكانت من أجمل النساء. قال علي رضي الله عنه: كانت من أهل فارس: وكانت ملكة في بلدها، فلما رأياها أخذت بقلوبهما،-

-فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت، ثم عادت فى اليوم التالى ففعلا مثل ذلك، فقالت: لا، إلا تعبدا ما أعبد، وتصليا لهذا الصنم، وتقتلا النفس، وتشربا الخمر. فقالا: لا سبيل إلى هذه الأشياء، فإن الله قد نهانا عنها، فانصرفت، ثم عادت فى اليوم الثالث ومعها قدح من خمر، وفى نفسها من الميل إليهما ما فيها، فراوداها عن نفسها، فأبت وعرضت عليهما ما قالت بالأمس، فقالا: الصلاة لغير الله أمر عظيم، وقتل النفس عظيم، وأهون الثلاثة شرب الخمر، فشربا الخمر، فانتشيا، ووقعا بالمرأة وزنيا بها، فرآهما إنسان فقتلاه». قال الربيع بن أنس: وسجدا للصنم، فمسخ الله الزهرة كوكباً. وقال على ﷺ، والسدىّ، والكلبى: إنما قالت: لا تدركانى حتى تعلمانى الذى تصعدان به إلى السماء، فقالا: نصعد باسم الله الأعظم، فقالت: فما أنتما بمدركىّ حتى تعلمانيه، قال أحدهما لصاحبه: علمها، فقال: إنى أخاف الله، فقال الآخر: فأين رحمة الله تعالى؟ فعلماها ذلك، فتكلمت به وصعدت إلى السماء، فمسخها الله تعالى كوكباً. قال الأستاذ: فعلى قول هؤلاء، هى الزهرة بعينها، وقال آخرون: هى هذا الكوكب الأحمر، واسمها بالفارسية: ناهيد، وبالقبطية: بادخت. يدل على صحة هذا القول ما أخبرنا به يحيى بن إسماعيل بإسناده عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه، قال: كان النبى ﷺ إذا رأى سهيلاً قال: " **لعن الله سهيلاً، إنه كان عشاراً باليمن، ولعن الله الزهرة، فإنها فتنت ملكين: هاروت وماروت** ".

وقال مجاهد: كنت مع ابن عمر ذات ليلة، فقال لى: أرمق الكوكب: يعنى الزهرة، فإذا طلعت فأيقظنى، فلما طلعت أيقظته، فلما نظر إليها سبها سبا شديداً، فقلت: يرحمك الله، تسب نجماً ساطعاً مطيعاً؟ فقال: إن هذه كانت بغيًّا، فلقى الملكان منها ما لقيا، وكذلك قال ابن عباس. وأنكر الآخرون هذا القول، وقالوا: الزهرة من الكواكب السبعة السيارة التى جعلها الله تعالى قواماً للعباد، وأقسم بها، فقال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ ﴾ [التكوير: ١٥ - ١٦]. وإنما كانت التى فتنت هاروت وماروت امرأة تسمى زُهْرَة لجمالها، فلما زنت مسخها الله شهاباً، فلما رأى رسول الله ﷺ الزهرة، ذكر تلك المرأة الموافقة لهذا الاسم فلعنها، وكذلك سهيل العشار كان رجلاً، فلما رأى رسول الله ﷺ هذا النجم الموافق اسمه لاسم هذا الرجل لعنه، يدل عليه ما روى قيس بن عباد عن ابن عباس فى هذه القصة، قال: كانت امرأة فضلت على النساء بالحسن والجمال كما فضلت هذه الزهرة على سائر الكواكب. قالوا: فلما أمسى هاروت وماروت بعد ما قارفا الذنب هما بالصعود إلى السماء، فلم تطاوعهما أجنحتهما، فعلما ما حل بهما، فقصدا إلى إدريس عليه السلام فأخبراه بأمرهما، وسألاه أن يشفع لهما إلى الله تعالى، وقالا له: إنا رأيناك يصعد لك من العبادة مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض، فاشفع لنا إلى الله تعالى، قال: ففعل إدريس ذلك، فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، لأنه ينقطع، فهما ببابل يعذبان.

واختلف العلماء فى كيفية عذابهما، فقال ابن مسعود: هما معلقان بشعورهما إلى قيام الساعة. وقال مقاتل: كُبِّلا من أقدامهما إلى أفخاذهما. وقال مجاهد: مُلِئ جب ناراً فجعلا فيه. وقال عمرو بن سعيد: هما معلقان منكسان فى السلاسل، يضربان بسياط الحديد.-

=وروى أن رجلاً قصدهما لتعلم السحر، فوجدهما معلقين بأرجلهما، مزرقة أعينهما، مسودة وجوههما، ليس بين ألستهما وبين الماء إلا أربعة أصابع، وهما يعذبان بالعطش، فلما رأى ذلك هاله مكانهما، فقال: لا إله إلا الله، فلما سمعا كلامه، قالا: لا إله إلا الله من أنت؟ قال: رجل من الناس، قالا له: ومن أى أمة أنت؟ قال: من أمة محمد ﷺ، قالا: أو بعث محمد ﷺ؟ قال: نعم، فحمدا الله تعالى، وأظهرا الاستبشار، فقال الرجل: ومِمَّ استبشاركما؟ قالا: إنه نبي الساعة، وقد دنا انقضاء عذابنا.

وروى هشام عن عائشة أنها قالت: قدمت امرأة من دومة الجندل، جاءت تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته، تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر وما تعمل به، فقالت عائشة لعروة: يابن أختي، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ، فكانت تبكي حتى رحمتها، ثم قالت: إن أخاف أن أكون قد هلكت، ثم قالت: كان لي زوج غاب عني، فدخلت عليّ عجوز، فشكوت لها ذلك، فقالت: إن فعلت ما آمرك به جعلته يأتيك، فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين، فركبت أحدهما وركبت هي الآخر، فلم يكن كثير حتى وقفنا ببابل، وإذا برجلين معلقين بأرجلهما، فقالا: ما جاء بك؟ فقلت: أتعلم السحر، فقالا: إنما نحن فتنة فلا تكفري، فارجعي من حيث أتيت، فقلت: لا، قالا: فاذهبي إلى ذلك التنور فبولي عليه، فذهبت لأبول ففزعت فلم أفعل، فرجعت، فقالا: أفعلت؟ قلت: نعم، فقالا هل رأيت شيئاً؟ فقلت: لم أر شيئاً، فقالا: لم تفعلي شيئاً، فارجعي إلى بلادك ولا تكفري، فأبيت، فقالا: إذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه، فذهبت فاقشعر جلدي وخفت، ثم رجعت إليهما فقلت: قد فعلت، فقالا ما رأيت؟ فقلت: لم أر شيئاً، قالا: كذبت، لم تفعلي، فارجعي إلى بلادك ولا تكفري، فإنك على رأس أمرك، فقلت: لا، فقالا لي: إذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه، فذهبت فبلت فيه، فرأيت فارساً مقنعاً بحديد، خرج مني وذهب في السماء فلم أره، قالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك فاذهبي، فقالت المرأة: والله ما علم شيئاً ولا قال لي شيئاً، فقالا: لا تريدين شيئاً إلا كان، خذي هذا القمح فابذريه فبذرته، ثم قلت له: إطلع نطلع، فقلت له: إنحصد فحصد، فقلت: انفرك ففرك، ثم قلت: انطحن فطحن، ثم قلت: اخبز فخبز. فلما رأيت أني لا أريد شيئاً إلا كان سُقِطَ في يدي فرجعت وندمت، والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئاً قط ولا أفعله أبداً.

قال الأوزاعي: بلغني أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: يا جِبْرِيلُ صِفْ لِي النَّارَ، فقال: إن الله تعالى أمر بها، فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أوقد عليه ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة، لا يطفأ جمرها، ولا يخمد لهبها، والذي بعثك بالحق لو أن ثوباً من ثياب أهل النار ظهر لأهل الأرض لماتوا جميعاً، ولو أن ذَنوباً من شرابها صب في ماء الأرض جميعاً لقتل من ذاقه ولو أن حلقة من السلسلة التي ذكرها الله وضعت على جبال أهل الأرض جميعاً لذابت وما استقلت، ولو أن رجلاً دخل النار وخرج لمات أهل الأرض من نتن ريحه، وتشويه خلقه وعظمه، فبكى النبي ﷺ، وبكى جبريل لبكائه، وقال: أتبكي يا محمد وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُوراً، وبكى جبريل، فقال: يا جبريلُ أَتَبْكِي وَأَنْتَ الرُّوحُ الْأَمِينُ، أَمِينُ اللَّهِ عَلَى وَحْيِهِ؟ قال: أخاف أن أبتلى بما ابتلى به هاروت وماروت، فهذا الذي منعني من=

أتى إليهما ليتعلم منهما السحر، فنهاه أشد النهى، وقالا له: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾، وأقاما عليه الحجة بذلك، حتى إذا أصر على تعلم السحر منهما، فيكون قد هلك عن بينة.

قرأ الحسن: مَلِكَين، بكسر اللام، وهو مروى أيضاً عن الضحاك وابن عباس ثم اختلفوا، فقال الحسن: كانا عجلين أقفلين ببابل يعلمان الناس السحر، وقيل: كانا رجلين صالحين من الملوك.... واحتجوا على ذلك بوجوه:

أحدها: أنه لا يليق بالملائكة تعليم السحر.

ثانيها: كيف يجوز إنزال المَلَكين مع قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٨]

ثالثها: لو أنزل المَلَكين لكان إما أن يجعلهما فى صورة الرجلين أو لا يجعلهما كذلك، فإن جعلهما فى صورة الرجلين، مع أنهما ليسا برجلين، كان ذلك تجهيلاً وتلبيساً على الناس، وهو غير جائز، ولو جاز ذلك، فلمَ لا يجوز أن كل واحد من الناس الذين نشاهدهم، لا يكون فى الحقيقة إنساناً، بل ملَكاً من الملائكة؟ وإن لم يجعلهما فى صورة الرجلين، قدح ذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٩] [٩١]

وبعيداً عن الخرافات والأساطير التى نسجها الفكر الإسلامى حول هذه القصة نقول:

صدَّق اليهود ما أشاعته الشياطين — وهم شياطين الإنس كما ذهب إلى

=اتكالى على منزلتى عند ربى، فأكون قد أمنت مكرهاً، فلم يزالا يبكيان حتى نوديا من السماء: ياجبريل وياحمد! إن الله قد أمَّنكما من غضبه فلا يعذبكما، وإن فضل محمد ﷺ على سائر الأنبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة." [الثعلبى صـ ٥٠ — ٥٤]

٩١) ذكر الرازى ردود من ذهب إلى أنهما كان مَلَكين، انظر جـ ٣ صـ ١٩٨ — ١٩٩.

ذلك المعتزلة – على سليمان؛ فهى أكاذيب لفقوها للطعن على ملكه. واعتمد من قال: إنهم من الإنس وليسوا من الجن على رواية تبين أن سليمان " كان قد دفن كثيراً من العلوم التى اختصه الله تعالى بها تحت سرير ملكه، حرصاً على أنه إن هلك الظاهر منها، يبقى ذلك المدفون، فلما مضت مدة على ذلك، توصل قوم من المنافقين إلى أن كتبوا فى خلال ذلك أشياء من السحر، تناسب تلك الأشياء من بعض الوجوه، ثم بعد موته، واضطلاع الناس على تلك الكتب، أوهموا الناس أنه من عمل سليمان، وأنه ما وصل إلى ما وصل إليه إلا بسبب هذه الأشياء، فهذا معنى: ﴿ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿١٠٢﴾ ﴾، واحتج القائلون بهذا الوجه على فساد من قال بأن المقصود فى الآية هم شياطين الجن، بأن شياطين الجن لو قدروا على تغيير كتب الأنبياء وشرائعهم بحيث يبقى ذلك التحريف فيما بين الناس، لارتفع الوثوق عن جميع الشرائع، وذلك يفضى إلى الطعن فى كل الأديان. فإن قيل: إذا جوزتم ذلك على شياطين الإنس، فلِمَ لا يجوز مثله على شياطين الجن؟ قلنا: الفرق أن الذى يفعله الإنسان لابد وأن يظهر من بعض الوجوه، أما لو جوزنا هذا الافتعال من الجن، وهو أن نزيد فى كتب سليمان بخط مثل خط سليمان، فإنه لا يظهر ذلك ويبقى مخفياً، فيفضى إلى الطعن فى جميع الأديان.[٩٢]

وعليه، فهى إشاعة بثها منافقون وصدقها اليهود؛ فقد أكد القرآن الكريم عدم صحتها بقوله: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾، وهذا التعبير يحمل معنيين:

الأول: أن سليمان لم يباشر هذا العمل الخداعى، وهو السحر.

الثانى: أن من يباشر السحر الذى هو خداع لا حقيقة له، يعتبر كافراً، لأنه

---

٩٢) الرازى جـ ٣ صـ ١٨٥.

يلبس الحق بالباطل، ويزعم قلب حقائق الأشياء، وهو غير صحيح. فهم يعلمون الناس الوهم والخداع، ويعينونهم على ما يضلون به عقول العامة، فيخضعوهم لأهوائهم، فلا يتصرفون إلا طبقاً لما يملونه عليهم، فهم يتصرفون فى حياتهم حسب أوامر السحرة والدجالون لهم، ويطيعون من يدعى أنه على صلة بالجان، لأنه — فى زعمهم — قادر على تحقيق كل ما يريده ويبتغيه.

أما ما يتعلق بهاروت وماروت، فإن كانا مَلَكَين، فلا يمكن أن يكون ما نزل عليهما هو السحر، لأن المنزِّل هو الله، وذلك غير جائز، لأن السحر كفر وعبث، ولا يليق بالله إنزال ذلك، فإذا كانا يعلمان الناس ما أنزل عليهما، فهو تعليم كيفية خداع السحر الناس، فإذا علم الناس حقيقة السحرة فى الخداع، انصرفوا عنهم و لم يصدقوهم، يؤيد ذلك ما تلا ذلك من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾، أى أننا نعلمك أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو خداع، حتى تحصن نفسك من الوقوع فى حبائل هؤلاء السحرة، فإذا تعلمت ذلك فلا تباشر عملهم بعد أن نعلمك هذه الطريقة، فهى اختبار لك، فإن عرفت الخدعة، و لم تباشر هذا العمل، فقد نجحت فى الاختبار، أما إذا باشرت عمل الساحر، بعد أن علمناك الطريق لتحصين نفسك من الخداع، فقد سقطت فى الاختبار، فإياك أن تباشر هذا العمل، ويكفيك أنك عرفت مغزى خدعة هؤلاء السحرة.

أما إذا أخذنا قراءة الحسن، والضحاك، وابن عباس بأنهما مَلِكَين بكسر اللام، فهما كما قيل: كان هاروت وماروت رجلين صالحين من الملوك يعلمان الناس ما يحصنهم من خداع السحرة وضلال الدجالين، ولذلك كانا يقولان لمن يعلمانهم: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾، أى لا تفعل ما يفعله السحرة بعد أن علمناك هذه الطريقة.

وجدير بالذكر أن التفريق بين الزوجين لا يحتاج إلى سحر ولا إلى أعمال سفلية كما يشاع بين الناس، ولكن يمكن التفريق بينهما بالنميمة، ونقل الأخبار الـمُنَفِّرة من طرف إلى الطرف الآخر، الأمر الذى يغرس الضغينة فى نفسيهما فيؤدى ذلك إلى الفرقة، وذلك معروف للكافة فى كل المجتمعات الإنسانية.

ثم نصت الآية على أن الضرر لايصل إلى أحد إلا بإذن الله تعالى، أى أن الضرر الحاصل عندما يحصل بعد الخداع والدجل، إنما يحصل بخلق الله وإيجاده وإبداعه، وما كان كذلك، فإنه يصح أن يضاف إلى إذن الله تعالى كما قال فى كتابه العزيز: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النحل: ٤٠].

هل سُحِرَ النبى ﷺ ؟

يرى كثير من علماء الفكر الإسلامى أن لبيد بن الأعصم سحر النبى ﷺ وذلك استناداً إلى حديث ورد فى كتب السنة ونصه: قال البخارى فى صحيحه: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا عيسى بن يونس، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة رضى الله عنها قالت سَحَرَ رسولَ الله ﷺ رجل من بنى زُرَيق، يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم، أو ذات ليلة، وهم عندى، لكنه دعا ودعا، ثم قال: ياعائشة ! أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه؟ أتانى رجلان، فقعد أحدهما عند رأسى، والآخر عند رجلى، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيدُ بن الأعصم، قال: فى أى شيء؟ قال: فى مُشط ومُشاطة، وجُفٍّ طلْع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: فى بئر ذَرْوان. فأتاها رسول الله ﷺ فى ناس من أصحابه فجاء، فقال: " **يا عائشة ! كأن ماءَها نُقاعة لحناء، وكأن رؤوسُ نخلها رؤوس الشياطين** "، قلت: يا رسول الله ! أفلا استخرجته؟ قال: " **قد عافانى الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً، فأمر بها فدُفنت** ".

وقال البخارى: وحدثنى عبد الله بن محمد قال: سمعت ابن عيينة يقول: أول من حدثنا به ابن جريج، يقول: حدثنى آل عروة، فسألت هشاماً عنه، فحدثنا عن أبيه، عن عائشة رضى الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ سُحِر، حتى كان يرى أنه يأتى النساء، ولا يأتيهن، قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا وكذا، فقال: يا عائشة ! أعلمت أن الله قد أفتانى فيما

استفتيته فيه؟ ثم ساق البخارى الحديث باللفظ السابق.[٩٣]

وقد طعن قوم فى هذا الحديث بدعوى أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع، لأنه إذا خُيِّل إليه ﷺ أنه يفعل الأمر وهو لم يفعله، أمكن أن يخيل إليه أنه أوحى إليه وهو لم يوح إليه، وأنه بلغ ما أوحى إليه وهو لم يبلغه، فلا يكون فى فعله ولا قوله حجة، ثم لو قلنا بصحة الحديث لوافقنا المشركين فى دعواهم أن النبى ﷺ كان مسحوراً، كما حكى الله عنهم بقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الإسراء: ٤٧]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان: ٨]

وبهذه الشبه التى أثارها هؤلاء، ردوا الحديث وطعنوا فيه — بالرغم من وروده فى الصحيحين — فلم يطعنوا فيه من ناحية السند، بل من جهة العقل، ثم جاءوا بشبهة أخرى، لكى يردوا بها الحديث، وهى قولهم: إن الحديث على فرض صحته، فهو آحاد، والآحاد لا يؤخذ بها فى باب العقائد، وعصمة النبى من تأثير السحر فى عقله عقيدة من العقائد، لا يؤخذ فى نفيها عنه إلا باليقين، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون[٩٤]، فهذه هى الشبهات التى أثارها الطاعنون فى حديث السحر.[٩٥]

---

٩٣) فتح البار جـ ١٠ صـ ٢٢١، و ٢٣٢، وكذالك رواه مسلم فى صحيحه ١٤/١٧٤، وأحمد فى مسنده ٦/٦٣.

٩٤) ومن المعاصرين الذين أنكرو الحديث بهذه الشبهات: الشيخ محمد عبده فى تفسيره لجزء عم، وسيد قطب فى الظلال، وغيرهما ممن تأثرا بما قالا، وقال الدكتور أحمد شلبى: إن حديث السحر هو من الإسرائيليات التى أدخلت على البخارى، وأنا أوفقه فى ذلك.

٩٥) بيومى صـ ٥٤- ٥٥، ثم ذكر أجوبة القائلين بصحة الحديث على أسباب رفض الرافضين لهذا الحديث، فليرجع إليها من شاء فى صـ ٥٥ وما بعدها.

ذو القرنين

ذوالقرنين: اسم شخص ورد فى القرآن الكريم كملك عادل بنى سداً يدفع به أذى يأجوج ومأجوج عن إحدى الأقوام، ولا تعرف هويته على وجه الدقة، فقد قيل: إنه الإسكندر الأكبر، وقيل: إنه كورش الكبير، وثمة دراسة حديثة تقول: إنه أخناتون، الفرعون المصرى، بينما رأى آخرون أنه ملك عربى ممن عاشوا قبل الإسلام، وهناك من يرى من غير المسلمين: أنه شخصية أسطورية، ويستندون فى ذلك على عدم وجود أى دليل تاريخى ملموس يناسب حجم إنجازات مثل هذه الشخصية العظيمة المفترضة.

وتكمن مشكلة عدم تحديد شخصيته تاريخياً: أن هناك أكثر من واحد يحمل نفس الإسم، وكلهم حكموا مساحات شاسعة على الأرجح، ولكن الراجح فى هذه المسألة: أنه الإسكندر ابن فيليبس المقدونى، لأن كتب التاريخ العربى تقول: إنه عاصر أرسطو، وعلى أى الأحوال فالمشهور أنه كان عبداً حكم مساحات شاسع من أقطار الكرة الأرضية، ويحكى القرآن الكريم قصته، فيذكر أنه بدأ التجوال بجيشه فى الأرض، فاتجه غرباً حتى وصل إلى عين حمئة، ثم توجه شرقاً حتى وصل لمنطقة، اختلف الناس فيها، فقيل عنها: إنه، إما أن تكون وقت طلوع الشمس، أو مكان شروق الشمس، يقول تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف: ٨٣ – ٩٨]

لم يذكر القرآن الكريم اسمه، ولم يحدد لنا زمانه، لأنه لم يؤرخ لهذه الشخصية؛ فهو ليس كتاب تاريخ، ولا سجلاً لأحداث من – وما مضى –، بل كتاب وعظ وهداية، يستخدم الأسلوب المقنع للمعارضين بصرف النظر عن كونه موافقاً لما حدث أم لم يتفق مع ما وقع فى سالف العصر والزمان، ولذا جاء ما حكاه موافقاً لما يعتقده اليهود، فهو إجابة عن سؤال توجه به المشركون من أهل مكة، بإيعاز من اليهود إلى النبى ﷺ ليعرفوا: أَمِنَ الأنبياء هو أم من المُتَنَبِّئين؟ ويذكر العلماء أن المشركين حينما رجعوا من المدينة، أو من عند اليهود إنما رجعوا ومعهم المقياس الذى يقيسون به صدق نبوة النبى وصحة رسالته، ولم يكن هذا المقياس إلا الإجابة عن الأسئلة.

هنا نستطيع أن نسأل هذا السؤال: ما الإجابة التى يتوقع المتوقع أن ينزل بها الوحى من السماء، ليثبت نبوة النبى وصدق رسالته؟ أهى الحقيقة التاريخية عن ذى القرنين، أم هى الإجابة التى ذكرها اليهود من أهل المدينة للمشركين من أهل مكة، وجعلوها المقياس الذى يقاس به أمر النبى عليه السلام؟

ليس من شك فى أن الله ﷻ قد أراد بالعدول عن الأخبار الصحيحة أمراً،

وليس هذا الأمر إلا صدق النبى ﷺ، والدلالة على أن الوحى يترل عليه من السماء، وأن هو الذى أخبر النبى ﷺ عما قاله اليهود للمشركين من قريش.[٩٦]

لم يتحدث القرآن الكريم عن ذى القرنين إلا فى حدود الإجابة عن الأسئلة التى لقنها اليهود لمشركى مكة وأوعزوا لهم أنه إن لم يجبهم بما يعرفه اليهود عن هذه الشخصية فليس بنبى، ولهذا لم تتطرق الإجابة إلى ما يتجاوز معرفة اليهود بذى القرنين، ولذا نسج الفكر الإسلامى أساطير حوله: كنيته، سبب بسط سلطانه على هذه الأقطار، وذكروا أحداثاً وآراء حول أبيه وأمه وغير ذلك من الأمور التى تتصل بحياته ووضعه بين قومه.[٩٧]

غير أننا نرى أن من الأقدمين من أجاز أن تكون هذه الصورة التاريخية صوراً

---

٩٦) خلف الله صـ ٢٤، ١٧٥.

٩٧) قالوا: هو الإسكندر بن فيلبس بن بطربوس بن هرمس بن هردوس بن منطون بن رومى بن لطين بن يونان بن يافث. ويقال: نسبه ينتهى إلى العيص بن إسحاق بن خليل الرحمن ﷺ. وزعم بعض القدماء أن الإسكندر هو أخو دارا بن دارا.....واختلفوا فى تسميته بذى القرنين، فقال بعضهم: سمى بذلك لأنه ملك الروم وفارس، وقيل: لأنه كان فى مقدم رأسه شبه القرنين من اللحم، وقيل: لأنه رأى فى المنام كأنه أخذ بقرنى الشمس..... قيل: إنه سار بجيشه نحو بلاد دارا، فالتقيا بناحية خراسان مما يلى الخزر واقتتلا أشد القتال وصارت الدائرة على جند دارا... وقتل دارا... قال العلماء بأخبار القدماء: لما قتل لإسكندر دارا ملك البلاد ودانت له العباد، فهدم ماكان فى بلاد فارس من بيوت النيران، وماكان بأرض الهند من بيوت الأوثان، وقتل الوابذة وأحرق كتبهم، ودعا الناس إلى الإسلام والتوحيد..... واختلف العلماء فى نبوته، فروى عن النبى ﷺ أنه قال: " لا أدرى أكان ذوالقرنين نبياً أم لا؟ "..... ثم اختلفوا بعدُ فيه، فقال قوم: لم يكن نبياً، وإنما كان عبداً صالحاً وملكاً عادلاً فاضلاً، وقال آخرون: بل كان نبياً غير مرسل، والصحيح إن شاء الله أنه كان نبياً غير مرسل.... وأنشدوا ما قال تبع:

قد كـــان ذوالقرنين قبلى مسلماً ملكاً تدين له الملوك وتسجـد
بلغ المشارق والمغارب يبتـغى أسباب أمر من حكيم مرشـد
فرأى مغيب الشمس عنـد غروبها فى عين ذى خُلُب ووثاط حرمد

[إقرأ تفاصيل الأساطير حول هذه النقاط وغيرها من أخبار ذى القرنين عند الثعلبى صـ ٣٥٩ - ٣٧٠.]

لما يعرفه أهل الكتاب عن ذى القرنين، وفسر الآيات تفسيراً معقولاً بعيداً عن الخرافات والأساطير؛ فقد جاء فى الرازى بصدد حديثه عن ذى القرنين مايلى: إعلم أن المعنى المراد أنه أراد بلوغ المغرب، فاتبع سبباً يوصله إليه حتى بلغه، أما قوله: ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾، ففيه مباحث:

البحث الأول: قرأ عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم: فى عين حامية، بالألف من غير همزة، أى غيرحارة. وعن أبى ذر قال: كنت رديف رسول الله ﷺ على جمل، فرأى الشمس حين غابت، فقال، أتدرى يا أبا ذر، أين تغرب الشمس هذه، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تغرب فى عين حامية. وهى قراءة ابن مسعود وطلحة وابن عامر، والباقون: حمئة، وهى قراءة ابن عباس. [٩٨]

واتفق أن ابن عباس كان عند معاوية، فقرأ معاوية: حامية، بألف، فقال ابن عباس: حمئة، فقال معاوية لعبد الله بن عمر: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين. ثم وجَّه إلى كعب الأحبار: كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: فى ماء وطين، كذلك نجده فى التوراة.

والحمئة: ما فيه ماء وحمأة سوداء. واعلم أنه لا تنافى بين الحمئة والحامية لجواز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعاً.

البحث الثانى: أنه ثبت بالدليل أن الأرض كروية، وأن السماء محيطة بها، ولاشك أن الشمس فى الفلك، وأيضاً قال: ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾، ومعلوم أن جلوس قوم فى قرب الشمس غير موجود، وأيضاً الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة، فكيف يعقل دخولها فى عين من عيون الأرض.

---

٩٨) روى الرازى هذا الحديث فى التفسير الكبير جـ ٢١ صـ ١٤١ – ١٤٢، ولكنى لم أعثر على قوله: " فإنها تغرب فى عين حامية " فى أى كتاب من كتب الحديث.

إذا ثبت هذا، فنقول: تأويل قوله: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ من وجوه:

الأول: أن ذا القرنين لما بلغ موضعها فى المغرب، ولم يبق بعده شيء من العمارات، وجد الشمس كأنها تغرب فى عين، وهذه مظلمة، وإن لم تكن كذلك فى الحقيقة، كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب فى البحر، إذا لم يَرَ الشط، وهى فى الحقيقة تغيب وراء البحر.

هذا هو التأويل الذى ذكره أبو على الجبائى فى تفسيره.

الثانى: أن للجانب الغربى من الأرض مساكن يحيط البحر به، فالناظر إلى الشمس يتخيَّل كأنها تغيب فى تلك البحار، ولاشك أن البحار الغربية قوية السخونة، فهى حامية، وهى أيضاً حمئة، لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء والماء، فقوله: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ إشارة إلى أن الجانب الغربى من الأرض قد أحاط به البحر، وهو موضع شديد السخونة.

الثالث: قال أهل الأخبار: إن الشمس تغيب فى عين كثيرة الماء والحمأة، وهذا فى غاية البعد، وذلك لأنا إذا رصدنا كسوفاً قمرياً، فإذا اعتبرناه، ورأينا أن المغربيين قالوا: حصل هذا الكسوف فى أول الليل، ورأينا المشرقيين قالوا: حصل فى أول النهار، فعلمنا أول الليل عند أهل المغرب، هو أول النهار الثانى عند أهل المشرق، بل ذلك الوقت الذى هو أول الليل عندنا، فهو وقت العصر فى بلد، ووقت الظهر فى بلد آخر، ووقت الضحوة فى بلد ثالث، ووقت طلوع الشمس فى بلد رابع، ونصف الليل فى بلد خامس. وإذا كانت هذه الأحوال معلومة بعد الاستقرار والاعتبار ليس هناك تضارب، فهى تغيب فى الطين والحمأة، وتختفى عن الطين والحمأة، كما ثبت من العلوم الفلكية والجغرافية، وعلمنا أن الشمس طالعة ظاهرة فى كل هذه الأوقات، كان الذى يقال: إنها تغيب فى الطين والحمأة كلاماً على غير اليقين، وكلام الله تعالى مبرأ عن هذه

التهمة، فلم يبق إلا التأويل الذى ذكرناه." [٩٩]

وواضح من هذا النص: أن الرازى يرى أن التأويل فى هذه المسألة من الأمور الضرورية، ليبرأ كلام الله من أن يكون على خلاف اليقين: كما يرى ذلك أيضاً النيسابورى وأبو حيان التوحيدى فى تفسيرهما لهذه القصة.

إن الذى دفع المتأخرين من أمثال الرازى إلى هذا التأويل إنما هو الكشف العلمى عن الكون وحقائقه، والتاريخ ووقائعه، وإن تاريخ المسألة فى حياة النبى ﷺ وموقف المشركين واليهود منه، وتوجيههم إليه الأسئلة على أن تكون الإجابة كما يعرفون، هو الذى يضطرنا إلى أن نذهب ما ذهبنا إليه من أن هذه القصة تصوِّر المعارف التاريخية والكونية عند أهل الكتاب، وعند المشركين من الذين يعاصرون النبى. وإن تاريخ المسألة فى كتب التفسير القديمة كالطبرى والكشاف، ووقوفهم عند أمثال هذه الحقائق التى تروى عن النبى ﷺ، وعن كعب الأحبار تدل على أن هذا الرأى هو الرأى السائد فى هذا المجال..... إن التأويل كان أمراً ضرورياً، وواجباً دينياً عند الرازى، ومن جاء بعده، لأن الكشف العلمى هو الذى اضطرهم إلى هذا.

وإن تاريخ المسألة يدل على أنا لا نحتاج إلى مثل هذا التأويل إذا فهمنا القصة على حقيقتها، وعرفنا القصد الذى يرمى إليه القرآن، وهو أن محمداً ﷺ نبى ويترل عليه الوحى، وأنه الذى أخبره بالإجابة عن تلك الأسئلة التى وجهت إليه من مشركى مكة، وأن هذه الإجابة قد وردت كما أخبر اليهود أهل مكة. [١٠٠]

اتبع القرآن الكريم نفس المنهج فى الرد على سؤالهم عن قصة أصحاب الكهف، يقول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ

---

٩٩) الرازى جـ ٢١ صـ ١٤١ – ١٤٢.

١٠٠) قارن خلف الله صـ ١٧٧ – ١٧٨.

وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف: ٢١ – ٢٦]

فالقرآن يصور فى الإخبار بهذه القصة آراء أهل الكتاب فيها، وليس الحقيقة التاريخية، يدل على ذلك ما يذكره من عبارات تدل على ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾وقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾، ومن هنا أيضاً طلب القرآن إلى النبى ﷺ ألا يمارى فيهم، وألا يستفتى فيهم أحداً: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾.

جاء فى الطبرى بصدد حديثه عن عدد الفتية ما يلى: ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾، يقول عز ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يامحمد لقائلى هذه الأقوال فى عدد الفتية من أصحاب الكهف رجماً منهم بالغيب: ﴿ رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾، يقول: ما يعلمه إلا قليل من خلقه... قوله: ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾، يقول تعالى ذكره: ولا تستفت فى عدة الفتية من أصحاب الكهف منهم – يعنى من أهل الكتاب – أحداً، لأنهم لا يعلمون عدتهم، وإنما يقولون فيهم رجماً بالغيب، لا يقيناً من القول.

وجاء فى الطبرى بصدد حديثه عن المدة: " ولبثوا...إلخ ": اختلف أهل التأويل فى معنى قوله: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ فقال بعضهم: ذلك خبر من الله تعالى ذكره عن أهل الكتاب أنهم يقولون ذلك كذلك، واستشهدوا على صحة قولهم ذلك بقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾، وقالوا: لو كان خبراً من الله عن قدر لبثهم فى الكهف، لم يكن لقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾ وجه مفهوم، وقد أعلم الله خلقه مبلغ لبثهم فيه وقدره.. [١٠١]

وهكذا ترى أن من الأقدمين مَن أجاز أن تكون هذه الصورة التاريخية صوراً لما يعرفه أهل الكتاب عن قصة أصحاب أهل الكهف، ومعنى ذلك أن القرآن الكريم يصوِّر فى بعض قصصه اعتقاد المعاصرين أو المخاطبين.

وهذا الرأى هو الذى اعتمد عليه الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الوهاب النجار فى رده على المستشرقين الذين كتبوا مادة أصحاب الكهف من دائرة المعارف الإسلامية، فقد قال رحمه الله: الذى ألاحظه أن عبارة دائرة المعارف الإسلامية كعبارة أكثر المفسِّرين: تعتبر أن قوله تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ خبر عن مدة مكث أهل الكهف فى كهفهم، منذ دخلوه إلى أن استيقظوا. ولكنى أفهم غير ذلك، وأقول: إن قوله: " ولبثوا.... إلخ " معمول لقوله: ﴿ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ ﴾، فهو من مقول السائلين، وليس خبراً من الله تعالى، ولذا أتبع ذلك القول بقوله: ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾. وعلى ذلك فالقرآن لم ينص على عدد أهل الكهف، ولا على المدة التى مكثوها فيه قبل أن يعثر عليهم، بل أمر الله رسوله أن يقول: ﴿ رَّبِّىٓ

---

١٠١) الطبرى جـ ٨ صـ ١٥٠

أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ وأن يرد عليهم حين يقولون: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ....إلخ ﴾ بقوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾ وقد ورد هذا القول عن ابن عباس.

وأعتقد أن السر فى هذه المسألة واضح بيِّن، فالقوم يسألون النبى عن عدد، وعن المدة، وقد جعلوا آراء اليهود مقياساً يقيسون به صدق النبى ﷺ، ولو نزل القرآن بغير هذه الآراء، وبخلاف هذا المقياس، لكذبوا النبى، ولما آمنوا به أو بالقرآن.

إن إخبار القرآن بهذه الآراء هو الدليل على أن الوحى يترل على النبى ﷺ من السماء، ومن هنا كانت أمثال العبارات السابقة: ﴿ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ﴾ ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾ أمراً واجباً، إذ لولاها لآمن الناس بأن هذا هو رأى القرآن فى المسألة، وعندئذ تقوم هذه المشكلات التى أوردها المستشرقون، اعتراضاً على القرآن، ودافع عن القرآن الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الوهاب النجار.[١٠٢]

١٠٢) خلف الله صـ ١٧٤ – ١٧٦.

أصحاب الأخدود

إنها قصة فتى، آمن، فصبر وثبت، فآمنت معه قريته:

لقد كان غلاماً نبيهاً، ولم يكن قد آمن بعدُ، وكان يعيش فى قرية، مَلِكُها كافر يَدَّعى الألوهية، وكان للملك ساحر يستعين به، وعندما تقدم العمر بالساحر، طلب من الملك أن يبعث له غلاماً يعلمه السحر ليحل محله بعد موته، فاختير هذا الغلام وأُرْسِل إلى الساحر.

فكان الغلام يذهب للساحر ليتعلم منه، وفى طريقه كان يمر براهب، فجلس معه مرة وأعجبه كلامه، فصار يجلس مع الراهب فى كل مرة يتوجه فيها إلى الساحر، وكان الساحر يضربه إن لم يحضر، فشكى ذلك للراهب، فقال له الراهب: إن خشيت الساحر، فقل له: حبسنى أهلى، وإن خشيت أهلك، فقل لهم: حبسنى الساحر.

وكان فى طريقه فى أحد الأيام، فإذا بحيوان عظيم يسد طريق الناس، فقال الغلام فى نفسه: اليوم أعلم أيهما أفضل؟ آلساحر أم الراهب؟ ثم أخذ حجراً وقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس، ثم رمى الحيوان فقتله، ومضى الناس فى طريقهم. فتوجه الغلام إلى الراهب وأخبره بما حدث، فقال له الراهب: يابنىّ ! أنت اليوم أفضل منى، وإنك ستُبْتَلى، فإذا ابتُليتَ، فلا تدل علىّ.

وكان الغلام بتوفيق الله يبرئ الأكمه والأبرص، ويعالج الناس من جميع الأمراض، فسمع به أحد جلساء الملك، وكان قد فقد بصره، فجمع هدايا كثيرة وتوجه بها إلى الغلام، وقال له: أعطيك جميع هذه الهدايا إن شفيتنى، فأجاب الغلام: أنا لا أشفى أحداً، إنما يشفى الله تعالى، فإن آمنت بالله شفاك،

فآمن جليس الملك، فشفاه الله تعالى.

فذهب جليس الملك إلى مجلس الملك، وقعد بجوار الملك كما كان يقعد قبل أن يفقد بصره، فقال له الملك: من ردَّ عليك بصرك؟ فأجاب الجليس بثقة المؤمن: ربى، فغضب الملك، وقال: أوَ لك ربًّا غيرى؟ فأجاب المؤمن دون تردد: ربى وربك الله. فثار الملك، وأمر بتعذيبه، فلم يزالوا يعذبونه حتى دل على الغلام.

أمر الملك بإحضار الغلام، ثم قال له مخاطباً: يابنى ! لقد بلغت من السحر مبلغاً عظيماً، حتى أصبحت تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل، وتفعل، فقال الغلام: إنى لا أشفى أحداً، إنما يشفى الله تعالى، فأمر الملك بتعذيبه، فعذبوه حتى دل على الراهب.

فأُحْضِرَ الراهب وقيل له: ارجع عن دينك ! فأبى الراهب ذلك، فجيء بمنشار ووضع على مفرق رأسه، ثم نُشِرَ فوقع نصفين، ثم أُحْضِرَ جليس الملك، وقيل له: إرجع عن دينك ! فأبى، فَفُعِلَ به كما فُعِلَ بالراهب، ثم جيء بالغلام، وقيل له: إرجع عن دينك ! فأبى الغلام. فأمر الملك بأخذ الغلام لقمة جبل، وتخييره هناك، فإما أن يترك دينه أو أن يطرحوه من قمة الجبل.

فأخذ الجنود الغلام وصعدوابه اجبل، فدعا الفتى ربه: اللهم أكفنيهم بما شئت ! فاهتز الجبل وسقط الجنود. ورجع الفتى يمشى إلى لملك، فقال الملك: أين من كانوا معك؟ فأجاب: كفانيهم الله تعالى. فأمر الملك جنوده بحمل الغلام فى سفينة والذهاب به وسط البحر، ثم تخييره هناك بالرجوع عن دينه، أو إلقائه فى البحر.

فذهبوا به، فدعا الغلام الله: اللهم أكفنيهم بما شئت. فانقلبت بهم السفينة، وغرق من كان عليها إلا الغلام. ثم رجع إلى الملك، فسأله الملك باستغراب:

أين من كان معك؟ فأجاب الغلام المتوكل على الله: كفانيهم الله تعالى، ثم قال للملك: إنك لن تستطيع قتلى حتى تفعل ما آمرك به،فقال الملك: ماهو؟ فقال الفتى المؤمن: أن تجمع الناس فى مكان واحد، وتصلبنى على جذع، ثم تأخذ سهماً من كنانتى، وتضع السهم فى القوس، وتقول: باسم الله رب الغلام، ثم ارمنى، فإن فعلت ذلك قتلتنى.

استبشر الملك بهذا الأمر، فأمر على الفور بجمع الناس، وصلب الفتى أمامهم، ثم رماه، فأصابه فقتله.

فصرخ الناس: آمنا برب الغلام. فهرع أصحاب الملك إليه، وقالوا: أرأيت ماكنت تخشاه! لقد وقع، لقد آمن الناس.

فأمر الملك بحفر شق فى الأرض، وإشعال النار فيها، ثم أمر جنوده بتخيير الناس، فإما الرجوع عن الإيمان، أو إلقائهم فى النار، ففعل الجنود ذلك، حتى جاء دور امرأة ومعها صبى لها، فخافت أن تُرْمَى فى النار، فألهم الله الصبى أن يقول لها: يا أماه! اصبرى! إنك على الحق.[١٠٣]

هذا ما ورد فى التراث الشعبى الدينى عن أصحاب الأخدود، وهو مليء بالصور الأسطورية، والأحداث الخرافية، التى لا يقبلها منطق، ولا يستسيغها عقل، ولا يقرها أى مبدأ من مبادئ التاريخ الدينى عبر العصور، وسوف نبين جانباً من ذلك فيما يلى:

١. ظهور المعجزة على يد الفتى، وذلك بإبراء المرضى، أمر موغل فى دهاليز الأسطورة، لأن المعجزة لاتظهر إلا على يد نبى لإثبات أنه مرسل من الله، **فهل كان الفتى مرسل من الله؟ ولِمَنْ؟** أضف إلى ذلك أن المعجزة

---

١٠٣) www.yabeyerouth.com./payes/index٨٢١ htm

لا تظهر على يد النبى إلا مرة واحدة لإفحام من أرسل إليهم؛ فموسى عليه السلام لم يبطل السحر إلا مرة واحدة أمام الجموع التى جمعها فرعون يوم الزينة، فلم يثبت أن موسى عليه السلام كان يسير فى ربوع مصر ليبطل عمل السحرة فيها. كذلك معجزة عيسى عليه السلام لم تكن عملاً مستمراً لإحياء الموتى ولإبراء الأكمه والأبرص، فلم يثبت أنه قد أبرأ كل المرضى فى زمنه، ولكن المعجزة ظهرت على يديه لإثبات أنه مرسل من الله، ولم تكن هناك معجزة دائمة إلا القرآن الكريم، لأن إعجازه نابع من صياغته على وجه يعجز أصحاب البيان أن يأتوا بمثله، والصياغة باقية إلى يوم الدين. فالإخبار بأن الفتى كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى أمر خيالى، لا واقع له إلا فى أذهن من يؤمنون بالخرافات والأساطير، ويعتقدون فى قدرة أناس من البشر على الإتيان بما هو خارق للطبيعة، وبعيد كل البعد عن المألوف فى المجتمعات الإنسانية، على الرغم من أنهم ليسوا رسلاً أرسلهم الله إلى مجتمعاتهم ليهدوهم إلى طريق الله. وسوف نبين المزيد مما نسج حول هذه القصة من خرافات، عندما نتناول ما ذكره القرآن الكريم عن أخبار أصحاب الأخدود.

٢. الإخبار بأن القوم آمنوا كلهم بمجرد تنفيذ الملك الخطة التى أشار بها الفتى عليه ليقتله مخالف لسنن الله فى النفس البشرية، فلم يحدث أن آمن قوم أى رسول بمجرد أن أظهر الله على يديه المعجزة، مهما بلغت غرابتها بالنسبة لهم، فلم يؤمن أحد بموسى عليه السلام يوم أن أبطل سحر السحرة إلا السحرة أنفسهم، فلم يؤمن أحد من الجمهور، رغم رؤيتهم لغرابة ما ظهر على يديه من إبطال سحر السحرة، وكذلك لم يؤمن فرعون وحاشيته. كذلك لم يؤمن قوم عيسى عليه السلام كلهم - كما

حدث مع الفتى — عندما شاهدوا معجزته، ولا بمحمد ﷺ عندما أدركوا عجزهم عن الإتيان بمثل آية واحدة من القرآن الكريم.

فهل كان عمل الفتى أكبر تأثيراً من معجزات الأنبياء؟ هل أعطى الله للفتى قوة خارقة فى الإقناع أكثر من أى نبى قبله أم بعده؟

إنها الغريزة الإنسانية التى تميل بطبعها إلى سماع - ونسج — الغرائب من الخرافات والأساطير، وهى طبيعة أكثر الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الإنسانية على اختلاف درجتها الحضارية. وليس هذا قاصراً فقط على الجهلاء الذين لم ينالوا حظاً من التعليم والثقافة، بل إننا أحياناً نجد هذه الظاهرة فى أوساط من تلقوا ثقافة عالية، مما يدل على أن ذلك من طبائع الإنسان وغرائزه التى لا تمحوها الثقافة العابرة، بل لابد من فكر واعٍ، وعقل مستنير، وأفق واسع، وقدرة على التفكير المجرد الذى يتطلع إلى ما وراء الحجب الفكرية من نور ساطع، يقود من يراه إلى البحث فى آفاق الصور الفكرية، والمعانى اللغوية، ودهاليز التاريخ الإنسانى بما فيه من معالم وأسرار.

وتلك منحة يمنحها الله لمن أراد ليقود الأمة إلى التقدم والرقى، وهؤلاء هم قاطرة الحضارة، وشموع الفكر والتنوير.

فماذا قال القرآن الكريم عن أصحاب الأخدود؟

يقول الله تعالى:

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [البروج: ١ - ٨]

روى المفسرون قصة أصحاب الأخدود بطرق متباينة، ذكر الرازى ثلاثة منها:

الرواية الأولى: ما ذكرناه عن الساحر والغلام..... وقد بينا ما فيها من عناصر أسطورية.

الرواية الثانية: ما روى عن علي ﷺ أنهم حين اختلفوا فى أحكام المجوس قال: هم أهل الكتاب، وكانوا متمسكين بكتابهم، وكانت الخمر قد أُحلّت لهم، فتناولها بعض ملوكها، فسكر، فوقع على أخته، فلما صحا ندم، وطلب المخرج، فقالت له: المخرج أن تخطب الناس، فتقول: إن الله تعالى قد أحل نكاح الأخوات، ثم تخطبهم بعد ذلك فتقول: بعد ذلك حرمه. فخطب، فلم يقبلوا منه ذلك، فقالت له: أُبسط فيهم السوط، فلم يقبلوا، فقالت: أُبسط فيهم السيف، فلم يقبلوا، فأمرته بالأخاديد وإيقاد النار، وطرح من أتى فيها، وهم الذين أرادهم الله بقوله: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ﴾ [البروج: ٤]

ولا يخفى ما فى هذه من معالم الأسطورة.

الرواية الثالثة: أنه وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى عليه السلام فدعاهم، فأجابوه، فسار إليهم ذو نواس اليهودى بجنوده من حمير، فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا، فأحرق منهم اثنى عشر ألفاً فى الأخاديد،..... وعن النبى ﷺ: " أنه كان إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوذ بالله من جهد البلاء " ويرى بعض الباحثين أن تعارض هذه الروايات يدل على كذبها.... وقال القفال: ذكروا فى قصة أصحاب الأخدود روايات مختلفة، **وليس فى شيء منها صحيح**.... وأظن أن هذه الواقعة كانت مشهورة عند قريش، فذكر الله تعالى ذلك لأصحاب رسوله **تنبيهاً لهم على ما يلزمهم من الصبر على دينهم، واحتمال المكاره فيه**، فقد كان مشركو قريش يؤذون المؤمنين على حسب ما

اشتهرت به من الأخبار من مبالغتهم فى إيذاء عمار وبلال.[١٠٤]

لم يرد فى القرآن الكريم ما يشير إلى أى من تلك الروايات الثلاثة، وعليه فيمكن القول بأن الله أراد أن يغرس فى قلوب من كان يعذبهم المكيون من المسلمين الصبر، مذكراً إياهم بأن يتحملوا كما تحمل المؤمنون قبلهم ممن عذبهم أصحاب الأخدود.

والمعنى: لُعِن أصحاب الأخدود (أى الذين كانوا يعبدون النار) على ما فعلوه بالمؤمنين من تنكيل وتعذيب، ويجب أن يفهم المسلمون أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود.

لم يذكر القرآن الكريم كنه هذا الذى فعلوه بالمؤمنين من تعذيب؛ لأن المراد تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان وإلحاق أنواع الأذى، وصبرهم وثباتهم حتى يأنسوا ويصبروا على ما كانوا يلقونه من أقوامهم ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المُعَذِّبين لمن خالفهم فى العقيدة، فهم ملعونون، ويمكن أن يقال فيهم: قُتِلَت قريش، كما قُتِلَ أصحاب الأخدود. وقُتِلَ: دعاء عليهم، كقوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ [عبس: ١٧]

ومن هنا يتبين أن القرآن الكريم لم يقصد ما ذكروه فى رواياتهم من خرافات وأساطير، وإنما أراد تثبيت قلوب المسلمين فى مكة على الإيمان بالله.

---

١٠٤) راجع ! الرازى جـ ٣١ صـ ١٠٧-١٠٨.

بقرة بنى إسرائيل

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [البقرة: ٦٧ – ٧١]

تعددت روايات المفسرين لقصة بقرة بنى إسرائيل [١٠٥]، ونلخصها فيما يلى:

عن ابن عباس أن شيخاً من بنى إسرائيل على عهد موسى عليه السلام كان مكثراً من المال، وكان بنو أخيه فقراء، لا مال لهم، وكان الشيخ لا ولد له، وكان بنو أخيه ورثته؛ فقالوا: ليت عمنا قد مات فورثنا ماله، وإنه لما تطاول عليهم ألا يموت عمهم، أتاهم الشيطان فقال لهم: هل لكم أن تقتلوا عمكم فترثوا ماله، وتغرموا أهل المدينة التى لستم بها ديته، وذلك أنهما كانتا مدينتين كانوا فى إحداهما، وكان القتيل إذا قُتِل وطُرِح بين المدينتين، قيس ما بين القتيل والقريتين، فأيتهما كانت أقرب إليه، غرمت الدية، وأنهم لما ستول لهم الشيطان

---

١٠٥) خاض مفسرو المسلمين فى شرح هذه القصة، فقالوا: إنه كان فى بنى إسرائيل شيخ موسر، فقتل بنو أخيه ابنه طمعاً فى ميراثه، وطرحوه على باب المدينة، ثم جاءوا يطالبون بدمه، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة، وروى أن شيخاً صالحاً من بنى إسرائيل كان له عِجْلَة، فأتى بها الغيضة، وقال لهم: إنى أستودعكها لابنى حتى يكبر، فشبت، وكانت وحيد بتلك الصفات، فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير..... [الزمخشرى جـ ٢ صـ ٦٧].

ذلك، وتطاول عليهم أن لا يموت عمهم، عمدوا إليه فقتلوه، ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التي ليسوا فيها: فلما أصبح أهل المدينة، جاء بنو أخي الشيخ فقالوا: عمنا قُتِل على باب مدينتكم، فوالله لنغرمنكم لنا دية عمنا، قال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا قاتلاً، ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أُغْلِق حتى أصبحنا، وإنهم عمدوا إلى موسى عليه السلام، فلما أتوه، قال بنو أخي الشيخ: عمنا وُجِد مقتولاً على باب مدينتهم، وقال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلناه، ولا فتحنا باب مدينتنا من حين أغلقناه حتى أصبحنا، وإن جبريل جاء بأمر السميع العليم إلى موسى عليه السلام فقال له: قل لهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾، يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل، وأنت تقول هذا؟

﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾، أي أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إليّ، وهذا هو الذي أجابني، حين سألتموني عنه أن أسأله فيه.

قال ابن عباس، وعبيدة، ومجاهد، وعكرمة: فلو أنهم عمدوا إلى أي بقرة، فذبحوها لحصل المقصود منها، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم..... والمقصود أنهم أُمِروا بذبح بقرة عوان، وهي الوسط بين النصف، الفارض: وهي الكبيرة، والبكر: وهي الصغيرة، وقال ابن عباس. ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة: شددوا فشدد الله عليهم، وضيقوا على أنفسهم، فسألوا عن لونها، فأُمِروا بصفراء فاقع لونها... ثم شددوا أيضاً: ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾، قال: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ ويقال: إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم، فسألوه أن يبيعهم إياها ببقرة، فأبى، فأعطوه

ثنتين، فأبى، فزادوه حتى بلغوا عشراً، فقالوا: والله لا نتركك حتى نأخذها منك، فانطلقوا به إلى موسى عليه السلام، فقالوا: يانبى الله ! إنا وجدناها عند هذا، وأبى أن يعطيناها، وقد أعطيناه ثمناً، فقال له موسى: أعطهم بقرتك، فقال: يارسول الله ! أنا أحق بمالى، فقال: صدقت، وقال للقوم: أرضوا صاحبكم، فأعطوه وزنها ذهباً، فأبى، فأضعفوه له حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهباً، فباعهم إياها، وأخذ ثمنها، فذبحوها، قال: اضربوه ببعضها، فضربوه بالبضعة التى بين الكتفين، فعاش، فسألوه: من قتلك؟ فقال لهم: ابن أخى..... فأخذوا الغلام فقتلوه. [١٠٦]

فإذا بحثنا فى التوراة عن هذه القصة وجدنا فى سفر التثنية ما يلى:

" إِذَا وُجِدَ قَتِيلٌ فِى الْأَرْضِ الَّتِى يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ لِتَمْتَلِكَهَا وَاقِعاً فِى الْحَقْلِ لَا يُعْلَمُ مَنْ قَتَلَهُ. يَخْرُجُ شُيُوخُكَ وَقُضَاتُكَ وَيَقِيسُونَ إِلَى الْمُدُنِ الَّتِى حَوْلَ الْقَتِيلِ. فَالْمَدِينَةُ الْقُرْبَى مِنَ الْقَتِيلِ يَأْخُذُ شُيُوخُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ عِجْلَةً مِنَ الْبَقَرِ لَمْ يُحْرَثْ عَلَيْهَا لَمْ تَجُرَّ بِالنِّيرِ. وَيَنْحَدِرُ شُيُوخُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ بِالْعِجْلَةِ إِلَى وَادٍ دَائِمِ السَّيَلَانِ لَمْ يُحْرَثْ فِيهِ وَلَمْ يُزْرَعْ وَيَكْسِرُونَ عُنُقَ تِلْكَ الْعِجْلَةِ فِى الْوَادِى. ثُمَّ يَتَقَدَّمُ الْكَهَنَةُ بَنُو لاوِى. لأَنَّهُ إِيَّاهُمُ اخْتَارَ الرَّبُّ إِلَهُكَ لِيَخْدُمُوهُ وَلِيُبَارِكُوا بِاسْمِ الرَّبِّ وَحَسَبَ قَوْلِهِمْ تَكُونُ كُلُّ خُصُومَةٍ وَكُلُّ ضَرْبَةٍ. وَيَغْسِلُ جَمِيعُ شُيُوخِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ الْقَرِيبِينَ مِنَ الْقَتِيلِ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْعِجْلَةِ الْمَكْسُورَةِ الْعُنُقِ فِى الْوَادِى. وَيُصَرِّحُونَ وَيَقُولُونَ أَيْدِينَا لَمْ تَسْفِكْ هَذَا الدَّمَ وَأَعْيُنُنَا لَمْ تُبْصِرْ. إِغْفِرْ لِشَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ الَّذِى فَدَيْتَ يَارَبُّ وَلَا تَجْعَلْ دَمَ بَرِيٍّ فِى وَسْطِ شَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ. فَيُغْفَرُ لَهُمُ الدَّمُ. فَتَنْزِعُ الدَّمَ الْبَرِيَّ مِنْ وَسَطِكَ إِذَا عَمِلْتَ الصَّالِحَ فِى عَيْنَيِ الرَّبِّ ". [سفر التثنية ٢١ : ١ – ٩]

---

١٠٦) ابن كثير جـ ١ صـ ١٨٨ وما بعدها.

فالناظر إلى هذا النص يفهم منه أن موسى عليه السلام أراد أن يشرع لهم ما يجب عليهم أن يقوموا به عند وقوع مثل هذه الحادثة، فليس فيها ضرب للميت ببعض البقرة المذبوحة، وإنما هو يشبه بالجملة ما يحدث عند الأعراب عندما يوجد قتيل لا يعلمون قاتله، فالمعروف والمتبع عندهم فى مثل هذه الحالة أنه إذا وجهت التهمة إلى قوم، أرسلوا إليهم رسولاً يقول لهم: إن دمنا عندكم، فاذبحوا لنا ذبيحة. فإذا فعلوا جاء أولياء الدم وأقسم المتهمون يمين القسامة أنهم لم يقتلوا ذلك القتيل، ولا يعلمون قاتله. ثم يسوى لهم لحم الذبيحة فيأكلون، ويأمن بعضهم بعضاً، وتثبت براءتهم من القتيل، وهذا هو المفهوم من القصة التى وردت فى سفر التثنية، وليس فيه ما يفيد ضرب الميت بجزء من هذه البقرة، ولا يشير من قريب أوبعيد إلى إحياء الميت بسبب هذه الضربة، وتعيين من قتله.

فليس فى نص القرآن الكريم ما يؤيد ضرب القتيل ببعض البقرة، وإحياؤه وإخباره بمن قتله، وإنما هى أساطير حاكها الفكر الإسلامى حول هذه القصة متأثراً بروايات إسرائيلية، تلقفها المفسرون من مسلمى أهل الكتاب، أمثال: كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام الذين لا يبالون بما ينسبونه إلى التوراة، وهى خالية منه، وقد أفاضوا على المسلمين ثروة من تلك الإسرائيليات التى لم ينزل الله بها من سلطان، ولا يمكن أن يأخذها أحد من المسلمين، ويجعلها برهاناً على أمر من الأمور.[١٠٧]

" فإذا نظرنا إلى القصص التى قصها الله فى هذه السورة قبل هذه القصة — وكلها متعلقة ببنى إسرائيل — وجدنا كل قصة مستقلة عما قبلها وما بعدها مبدوءة بقوله تعالى: "وإذ"، إقرءوا: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ -

١٠٧) راجع الثعالبى صـ ٢٣١ — ٢٣٦.

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ - وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً - وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ - وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم - وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً - وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ - وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ - وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ - وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً - وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ﴾

فهذا النسق المطرد الذى لم يتخلف يجعل مسألة قتل النفس والتدارؤ فيها مسألة مستقلة بنفسها، غير مرتبطة بما قبلها، ولا مدمجة فيها.... ذلك أن القصة التى أمر فيها موسى قومه بذبح البقرة لم يكن الغرض منها الإتيان بكل ما اشتملت عليه واندرج فيها من الحالات والأحكام؛ بل الغرض أن يقص الله على رسوله محمد ﷺ نموذجاً مما بلغ إليه تعنت بنى إسرائيل فى إبطائهم عن امتثال أمر الله، ومطاولتهم، ومماطلتهم فى تنفيذ ما يأمرهم به، دون استيفاء القصة استيفاء كاملاً يشتمل على بيان الحكمة الباعثة على أمرهم بذبح البقرة، بل هو يقص علينا نمطاً من تعنتهم وصلابة أعناقهم.

وأما القصة الأخرى المبينة فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ﴾، فإنه يقص علينا لوناً من أفضاله على بنى إسرائيل، وحل مشكلاتهم بطريقة لم تخطر لهم، ولا لبشر ببال، وظلت هذه الحكمة العالية، المشتملة عليها تلك الطريقة غامضة على بنى إسرائيل، وعلى جميع البشر الأجيال الطوال.

والذى فهمته من القصة الأولى: أن بنى إسرائيل قد وقعت عندهم واقعة، قد حاروا فيها، وهى أن شخصاً قد قُتِل فى الحقل، وهم لا يدرون من قتله، والحقل واقع بين بلاد كثيرة، فأى البلاد تلصق بأهله تهمة القتل؟ رفعوا أمرهم إلى موسى، فما كان جوابه إلا أن قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟

﴿ بَقَرَةً ﴾، ولما كان الجوب بعيداً فى رأيهم عن الغرض الذى جاءوا لأجله، وقع ذلك عندهم موقع الغرابة، وقالوا لموسى: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾، ولما كان موسى إنسان صدق، بعيداً عن الهزء والسخرية بعباد الله، قال لهم: ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾، الذين يهزءون بعباد الله.

ثم كانت المراجعة بينهم وبين موسى وربه حتى بيَّن لهم شأن البقرة، ولونها، وأحوالها أتم بيان، ومع ذلك لم يمتثلوا، بل ذبحوها بعد إذ كادوا لا يفعلون، أى أنهم ذبحوها بعد جهد شديد.

أتى موسى برجال أقرب محلة من سكان القتيل، وأحلفهم عليها بعد ذبحها، أى وهى أمامهم،: أنهم ما قتلوا القتيل، ولا علموا به، وأنهم برآء من دمه، وكانوا يغسلون أيديهم على البقرة، كما قص ذلك فى التوراة.[١٠٨]

هذه اليمين فى شريعتهم كيمين القسامة عندنا معشر المسلمين؛ إذا قُتِل قتيل فى محلة غير محلة قومه، أو بقرب تلك المحلة، ولم يعلم قاتله، وكان هناك لوث يقع به فى النفس صدق المدعى، وهو ولى الدم (واللوث: القرينة) حلف خمسين يميناً، واستحق الوارث بالقسامة فى القتل الخطأ، أو شبه العمد، الدية فى القتل العمد حالة على المقسم به. ولا قصاص فى الجديد، لأن القسامة حجة ضعيفة، فلا توجب القود احتياطاً للدماء. وإن لم يكن هناك لوث، أو أنكر المدعى عليه اللوث فى حقه، فاليمين على المدعى عليه. وأظهر الأقوال أنه يغلظ عليه بالعدد.[١٠٩]

فتلك عند اليهود شرع كالقسامة عند المسلمين فى الجملة.

وأما القصة الثانية، وهى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾، فهى فى شأن

---

١٠٨) النحار صـ ٢٦٠ – ٢٦٢.

١٠٩) راجع الخطيب جـ ٢ صـ ٤٢٩ – ٤٣٢.

قتيل وجد قتيلاً فى بيته، أو محلة قومه، أو سقط فى معركة فيها جماعة، وقد دفع كل واحد القتل عن نفسه، ولم يتعين قاتله تماماً، وكل واحد يتهم سواه بالقتل. وحينئذ يكون المتهمون محصورين، والقاتل لا يخرج عنهم بدليل قوله تعالى: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾، ولما كان الله تعالى مخرجاً ما يكتمون من القتل، علمهم طريقة يميز بها القاتل من البريء. أو هى على الأقل تضيق دائرة الاتهام، وتوجه نظر القاضى إلى استنباط الأدلة على المتهم، أو من له اتصال بالقتل.

ذلك أنهم يأتون بالمتهم، ثم يضربونه بجزء من تلك النفس، أى من القتيل، وهو متصل ببقية الجسم، بأن يأتى واحد ويضرب المتهم بيد القتيل أو رجله، فإذا كان المتهم بريئاً لم يحدث له شيء، وإذا كان قاتلاً ظهر عليه انفعال نفسى، ورعدة يعلم بسببها أنه القاتل دون سواه، أو هو على اتصال به.

وهذا الأمر يرجع إلى أحوال الغرائز النفسية، وإلى العقل الباطن فى الإنسان؛ ذلك أن القاتل حين يباشر الجريمة — وبخاصة القتل — يكون واقعاً تحت تأثير انفعال خاص يغلى منه دمه، يدفعه ذلك الانفعال إلى ارتكاب جريمة القتل، فإذا سكن ثائره، وهدأت أعصابه، وزال ذلك الدافع الذى أكسبه الجرأة حتى طوعت له نفسه ارتكاب الجريمة، عاوده الندم، وتبكيت الضمير، وصار شبح الجريمة مخيفاً فى نظره، ويتمثل له شبحها فى كل شيء يتعلق بها، فهو يكره رؤية مكان الجريمة، والأشياء التى رآها رؤية مقارنة لارتكابها، وتضطرب نفسه، ويرتفع نبضه ويسرع إذا ذُكِّر بشيء من الجريمة.

ويكثر أنه إذا أُدْخِل على القتيل، أو عُرِض عليه تألم أشد ألم عرفه، واضطرب، ولم يستطع النظر إليه، ولا إلى مكان حدوث الجريمة، فكيف إذا حرك عضو من أعضاء القتيل وضُرِب به القاتل، لاشك فى أن ذلك العمل يكون ذا تأثير عظيم فى أعصابه لايطيق معه ذلك المنظر.

هذا إذا كان القتل لحادث عارض، أما إذا كان انتقاماً للشرف أو لثأر، فإن الأعراض التي يأتي بها الانفعال تكون فرحاً وجذلاً ".[١١٠]

١١٠) النجار صـ ٢٦٢ – ٢٦٣.

نبأ الخصم

تحدث القرآن الكريم فى سورة " ص " عن داود عليه السلام فى إحدى عشرة آية اشتملت على ثلاثة موضوعات:

الموضوع الأول: بيان ما أنعم الله به عليه من: تسخير الجبال، وسيطرته على الطير، وتقوية ملكه، وإعطائه الحكمة وفصل الخطاب، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص: ١٦ - ٢٠]

وقد خاض كثير من المفسرين وكتاب السير فى تفصيل هذه النعم، فاختلطت الحقائق فى مدوناتهم بالأساطير، بل إن الغالب الأعم فى رواياتهم كان أسطورياً، ذلك أنهم قالوا: " كان (داود) يقرأ الزبور بسبعين لحناً، بحيث يعرق المحموم، ويفيق المغمى عليه، وكان إذا قرأ الزبور برز إلى البرية، فيقوم وتقوم معه علماء بنى إسرائيل خلفه، وتقوم الناس خلف العلماء، وتقوم الجن خلف الناس، وتقوم الشياطين خلف الجن، وتدنو الوحوش والسباع ويؤخذ بأعناقها، وتظلله الطيور مصغية، ويركد الماء الجارى، ويسكن الريح..... ويقال: إن داود عليه السلام كان إذا تخلل الجبال، فسبح الله تعالى جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبح، ثم قال فى نفسه ليلة من الليالى: لأعبدنّ الله تعالى عبادة لم يعبده أحد بمثلها، فصعد الجبل، فلما كان جوف الليل داخلته وحشة، فأوحى الله تعالى إلى الجبال أن آنسى داود، فاصطكت الجبال بالتسبيح والتقديس والتهليل، فقال داود فى نفسه: كيف يُسْمَع صوتى مع هذه الأصوات؟ فهبط عليه جبريل

عليه السلام، وأخذ بعضده، حتى انتهى به إلى البحر، فوكزه برجله، فانفجرت له الأرض، فانتهى به إلى الحوت، فوكزه برجله، فانتهى به إلى الصخرة، فوكز الصخرة برجله، فانفلقت، فخرج منها دودة تنش، فقال له جبريل: إن ربك يسمع نشيش هذه الدودة فى هذا الموضع.....قال ابن عباس: وكان داود يفهم تسبيح الحجر والشجر والمدر....وقال ابن عباس: كان — أى داود — أشد الملوك سلطاناً، وكان يحرس محرابه كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألف رجل، وقال السدى: كان يحرسه كل ليلة أربعة آلاف رجل..... وروى فى الأخبار أن داود عليه السلام لما ملك بنى إسرائيل كان من عادته أن يخرج إلى الناس متنكراً، فإذا رأى رجلاً لا يعرفه تقدم إليه، فيسأله عن داود، فيقول له: ما تقول فى داود وَالِيكُمْ هذا: أى الرجل هو؟، فيثنى عليه ويقول خيراً، فبينما هو كذلك يوماً من الأيام، إذ قيض الله له مَلَكاً فى صورة الآدميين، فلما رآه تقدم إليه داود على عادته فسأله، فقال له الملَك: نعم الرجل هو، لولا خصلة فيه، فراع داود ذلك، فقال: ماهى يا عبد الله؟ قال: إن داود يأكل ويطعم عياله من بيت المال. قال: فتنبه لذلك، وسأل الله تعالى أن يسبب له سبباً يستغنى به عن بيت المال، فينفق منه ويطعم عياله، **فألان له الحديد، فصار فى يده مثل الشمع والعجين والطين المبلول**، وكان يصرفه بيده كيف يشاء من غير إدخال نار ولا ضرب بحديد، وعلمه الله تعالى صنعة الدروع، فكان يتخذ الدروع، وهو أول من عملها، وكانت قبل ذلك صفائح: فيقال: إنه كان يبيع كل درع بأربعة آلاف درهم، فيأكل ويطعم عياله، ويتصدق منها على الفقراء والمساكين فذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ: ١١]، أى دروعاً كوامل واسعات: ﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ: ١١]، أى لا تجعل المسامير دقاقاً، فتعلق، ولا

غلاظاً، فتكسر الحلق..... " [١١١]

وقال البيضاوى فى قوله: " أوِّبى ": " رجِّعى فى التسبيح كلما رجع فيه "، وهذا يدل على عظم شأنه وكبريائه وسلطانه، حيث جعل الجبال كالعقلاء المنقادين لأمره فى نفاذ مشيئته..... إلانة الحديد له، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ: ١٠ - ١١] النسج أو الثقب، قال البيضاوى فى ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾: " جعلناه فى يده كالشمع يصرفه كيف يشاء من غير إحماء وطرق بآلاته أو بقوته "، فكان يعمل الدروع المسردة، أى ذات الحلق من الحديد بيده، معجزة له، وأمراً خارقاً للعادة. ولو كان يعمل الدروع بواسطة النار لم يكن فى ذلك امتناناً من الله عليه، إذ كل الناس يعملون كذلك، اللهم إلا أن يدعى مدعٍ أن إلانة الحديد لم تكن معروفة قبل داود، وأن الله هداه إلى هذا الأمر الذى لم يكن معروفاً قبله.... "

غير أن بعض المفسرين نحا نحواً بعيداً عن جَوِّ الأسطورة، منهم الرازى، فقال فى شرح هذه الآيات: بالغ الكفار فى السفاهة على رسول الله ﷺ، فقالوا: ﴿ عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾، أى عجل لنا نصيبنا من الجنة، لأنهم كانوا ينكرون البعث والحشر، فقال الله تعليقاً على كلامهم: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾، كأنه قيل: إن كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهال جراءتهم على الله وإنكارهم الحشر والنشر، فاذكر قصة داود حتى تعرف شدة خوفه من الله تعالى ومن يوم الحشر..... أو كأنه قيل لمحمد: لا يضيق صدرك بسبب إنكارهم لقولك ودينك، فإنهم إذا خالفوك، فالأكابر من الأنبياء وافقوك. [١١٢]

---

١١١) اقرأ ما سُطِّرَ حول هذل الموضوع من أساطير عند الثعلبى صـ ٢٧٥ - ٢٧٩.

١١٢) الرازى جـ ٢٦ صـ ١٦٠.

أما شرحه لقوله تعالى: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾، فقال: ".. يجوز أن يقال: إن داود عليه السلام قد أوتى من شدة الصوت وحسنه ما كان له فى الجبال دوى حسن، وما يصغى الطير إليه لحسنه، فيكون دوى الجبال وتصويت الطير معه، وإصغاؤه إليه تسبيحاً "، غير أنه عندما ينقل عن الرواة يظهر فى مروياته ما يشبه الأسطورة؛ فإنه عندما روى ما قاله السابقون فى تفسير هذه الآية، ينقل عما روى عن ابن عباس قوله: كان داود إذا سبح جاوبته الجبال، واجتمعت إليه الطير فسبحت معه، ثم يعقب على ذلك بقوله: واجتماعها إليه هو حشرها، فيكون على هذا التقدير حاشرها هو الله، فإن قيل: كيف يصدر تسبيح الله عن الطير مع أنه لا عقل لها، قلنا: لا يبعد أن يقال: إن الله تعالى كان يخلق لها عقلاً، حتى تعرف الله، فتسبحه حينئذ، وكل ذلك كان معجزة لداود عليه السلام [١١٣]

وعندما ننظر إلى هذه الآيات بعقل واعٍ — بعيداً عما رواه المغرمون بالأساطير، ميلاً إليها، أو أسلوباً لجذب العامة وسرعة التأثير عليهم — يتبين لنا أن هذه النعم هى:

١. تسخير الجبال لداود عليه السلام، كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾، فهو على سبيل المجاز كما فى آيات كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الاسراء: ٤٤]، وقوله: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر: ٢٤]، وغيرهما من الآيات التى نُسِبَ فيها التسبيح إلى غير العاقل، إذ المراد

---

١١٣) المصدر السابق جـ ٢٦ صـ ١٦٣.

من هذا التسبيح كونها دالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته، فالتسبيح المضاف إلى الجمادات ليس إلا بمعنى الدلالة على تنزيه الله تعالى، فهو إطلاق مجازى.

أما قوله تعالى: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ: ١٠]، فيمكن تفسيره على النحو التالى:

معنى أَوِّبى: رجِّعى فى التسبيح، وقد بينا المعنى المجازى لمعنى تسبيح الجمادات فى الأسطر السابقة، كما يمكن أن تفسر كلمة: " أَوِّبى " بمعنى أطيعى، اعتماداً على ماقاله قتادة من أن معنى الأَوَّاب: المطيع، وقد جاء بهذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص: ١٧]، أى إنه مطيع، وإطاعة الجبال لداود: وقوعها تحت سيطرته ينقب فيها ماشاء له التنقيب ليستخرج الحديد من باطنها.

واستخراج داود الحديد من باطن الجبال كانت بواسطة مهندسين فى مملكته، لأن كلمة الطير كانت عَلَماً يطلق على سلاح المهندسين فى الجيش، كما سنبين ذلك فيما بعد، عند الحديث عن الهدهد.

فمعنى الآية السابقة أن الجبال كانت تحت سيطرة داود ينقب فيها بواسطة المهندسين، يستخرجون الحديد منها ويصنعون له الدروع السابغات.[١١٤]

الموضوع الثانى: اختبار داود فى مجال الحكم، يقول الله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى

١١٤) النجار صـ ٣٠٩ – ٣١٠.

فِي ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص: ٢١ – ٢٥]

ذُكِرَ فى التراث الإسلامى قصة رُوِيَت بثلاث روايات:

الأولى: إن داود نظر — وهو يمشى على سطح داره — إلى امرأة تستحم، فأعجبته وأغرم بها، وأتى بها واضطجع معها، فحملت منه وأعلمته، وكان زوجها " أوريا الحثى " فى الحرب، فأتى به ليسأله عن أمر الحرب فى الظاهر، وليحدث الرجل بامرأته عهداً حتى لا يرتاب بأمرها إذا علم فيما بعد أنها حامل، ولكن الرجل كان تقياً جداً، فبات بباب داود و لم يزر امرأته، لأنه رأى من عدم التقوى أن يتمتع بزوجه وإخوانه فى الحرب بعيدون عن أزواجهم. فلما علم داود بأمره لم ير وسيلة لعدم افتضاح أمره إلا تعريض " أوريا " لجبهة القتال حاملاً الراية، وأن يتأخر عنه الجند بعد التقدم؛ وبهذه الوسيلة قُتِل الرجل، وأتت امرأته بولد من تلك الزنية ! وتزوجها داود، ثم مرض الولد فحزن داود لمرضه حزناً شديداً حتى لا يقدر أحد على تسرية همه. ثم مات الولد. ومن هذه المرأة كان سليمان.فهذه القصة ترديد لما يرويه اليهود فى كتابهم المقدس. [١١٥]

---

١١٥) " وَكَانَ فِي وَقْتَ الْمَسَاءِ أَنَّ دَاوُدَ قَامَ مِنْ سَرِيرِهِ وَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ بَيْتِ الْمُلْكِ فَرَأَى مِنْ عَلَى السَّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحِمُّ. وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ جِدًّا. فَأَرْسَلَ دَاوُدُ وَسَأَلَ عَنِ الْمَرْأَةِ فَقَالَ وَاحِدٌ أَلَيْسَتْ هَذِهِ بَثْشَبَعَ بِنْتَ أَلِيعَامَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ. فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلاً وَأَخَذَهَا فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ فَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمْثِهَا. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا. وَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ فَأَرْسَلَتْ وَأَخْبَرَتْ دَاوُدَ وَقَالَتْ إِنِّي حُبْلَى. فَأَرْسَلَ دَاوُدُ إِلَى يُوآبَ يَقُولُ أَرْسِلْ إِلَيَّ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ ، فَأَرْسَلَ يُوآبُ أُورِيَّا إِلَى دَاوُدَ. فَأَتَى أُورِيَّا إِلَيْهِ فَسَأَلَ دَاوُدُ عَنْ سَلاَمَةِ يُوآبَ وَسَلاَمَةِ الشَّعْبِ وَنَجَاحِ الْحَرْبِ. وَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: انْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ وَاغْسِلْ رِجْلَيْكَ. فَخَرَجَ أُورِيَّا مِنْ بَيْتِ-

الثانية: نفس القصة، ولكنها رويت برواية أخرى، وهى أن داود "...نظر إلى امرأة فى بستان على شط بركة تغتسل، هذا قول الكلبى. وقال السدى: رآها تغتسل على سطح لها، فرآها امرأة من أحسن النساء خلقاً، فتعجب داود من حسنها، وحانت منها التفاتة، فأبصرت ظل داود عليه السلام، فنشرت شعرها فغطى بدنها كلها، فزاد ذلك إعجاباً بها، فسأل عنها، فقيل له: هى سابغ بنت شائع، امرأة أوريا بن حنان، وزوجها فى غزاة البلقاء مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود، فكتب داود إلى ابن أخته أيوب، صاحب بعث بلقاء: أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وكذا، وقدمه على التابوت، وكان المقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع إلى ورائه حتى يفتح الله على يديه أو يُسْتَشْهَد، فبعث به ففتح له، فكتب إلى داود بذلك، فكتب إليه داود أيضاً: أن ابعثه إلى غزوة كذا، وكان رئيسها أشد منه بأساً، فبعثه، فقُتِلَ فى المرة الثانية، فلما انقضت عدتها

=الْمُلْك وَخَرَجَتْ وَرَاءَهُ حِصَّةٌ مِنْ عِنْد الْمَلِك. وَنَامَ أُورِيَّا عَلَى بَاب بَيْت الْمَلِك مَعَ جَمِيع عَبِيد سَيِّده وَلَمْ يَنْزِلْ إِلَى بَيْته. فَأَخْبَرُوا دَاوُدَ قَائِلِينَ لَمْ يَنْزِلْ أُورِيَّا إِلَى بَيْته فَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا أَمَا جِئْتَ مِنَ السَّفَرِ. فَلِمَاذَا لَمْ تَنْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ. فَقَالَ أُورِيَّا لِدَاوُدَ إِنَّ التَّابُوتَ وَإِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا سَاكِنُونَ فِي الْخِيَامِ وَسَيِّدِي يُوآبُ وَعَبِيدُ سَيِّدِي نَازِلُونَ عَلَى وَجْهِ الصَّحْرَاءِ وَأَنَا آتِي إِلَى بَيْتِي لآكُلَ وَأَشْرَبَ وَأَضْطَجِعَ مَعَ امْرَأَتِي. وَحَيَاتِكَ وَحَيَاةِ نَفْسِكَ لاَ أَفْعَلُ هَذَا الأَمْرَ. فَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا أَقِمْ هُنَا الْيَوْمَ أَيْضاً وَغَدًا أُطْلِقُكَ. فَأَقَامَ أُورِيَّا فِي أُورُشَلِيمَ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَغَدَهُ. وَدَعَاهُ دَاوُدُ فَأَكَلَ أَمَامَهُ وَشَرِبَ وَأَسْكَرَهُ. وَخَرَجَ عِنْدَ الْمَسَاءِ لِيَضْطَجِعَ فِي مَضْجَعِهِ مَعَ عَبِيدِ سَيِّدِهِ وَإِلَى بَيْتِهِ لَمْ يَنْزِلْ.

وَفِي الصَّبَاحِ كَتَبَ دَاوُدُ مَكْتُوباً إِلَى يُوآبَ وَأَرْسَلَهُ بِيَدِ أُورِيَّا. وَكَتَبَ فِي الْمَكْتُوبِ يَقُولُ اجْعَلُوا أُورِيَّا فِي وَجْهِ الْحَرْبِ الشَّدِيدَةِ وَارْجِعُوا مِنْ وَرَائِهِ فَيُضْرَبَ وَيَمُوتَ. وَكَانَ فِي مُحَاصَرَةِ يُوآبَ الْمَدِينَةَ أَنَّهُ جَعَلَ أُورِيَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي عَلِمَ أَنَّ رِجَالَ الْبَأْسِ فِيهِ. فَخَرَجَ رِجَالُ الْمَدِينَةِ وَحَارَبُوا يُوآبَ فَسَقَطَ بَعْضُ الشَّعْبِ مِنْ عَبِيدِ دَاوُدَ وَمَاتَ أُورِيَّا الْحِثِّيُّ أَيْضاً.....فَلَمَّا سَمِعَتِ امْرَأَةُ أُورِيَّا أَنَّهُ قَدْ مَاتَ أُورِيَّا رَجُلُهَا نَدَبَتْ بَعْلَهَا. وَلَمَّا مَضَتِ الْمَنَاحَةُ أَرْسَلَ دَاوُدُ وَضَمَّهَا إِلَى بَيْتِهِ وَصَارَتْ لَهُ امْرَأَةً وَوَلَدَتْ لَهُ ابْناً. وَأَمَّا الأَمْرُ الَّذِي فَعَلَهُ دَاوُدُ فَقَبُحَ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ." [صموئيل الثانى ١١: ٢ – ١٧، و ٢٦ –٢٧]

تزوجها داود، فهى أم سليمان عليه السلام. [١١٦]

الثالثة: كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن يترل له عن امرأته، فيتزوجها إذا أعجبته، وكانت لهم عادة فى المواساة بذلك قد اعتادوها، وقد روى أن الأنصار كانوا يواسون المهجرين بمثل ذلك، فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له " أوريه "، فأحبها، فسأله الترول له عنها، فاستحيا أن يرده، ففعل فتزوجها، وهى أم سليمان، فقيل له: إنك مع عظم مترلتك، وارتفاع مرتبتك، وكبر شأنك، وكثرة نسائك: لم يكن ينبغى لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة الترول، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك، وقهر نفسك، والصبر على ما امتحنت به. وقيل خطبها أوريا، ثم خطبها داود، فآثره أهلها، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن، مع كثرة نسائه.

فهذه أقوال السلف الصالح من أهل التفسير والقاصون فى قصة داود وانتشرت بين الناس لمضمونها الأسطورى، فاستنكر ذلك أهل الصلاح والتقوى، فقد روى الحارث الأعور عن على بن أبى طالب رضي الله عنه أنه قال: من حدَّث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القاصون معتقداً صحته جلدته حدين، لعظيم ما ارتكب، وجليل ما احتقب: يعنى ما اكتسب من الوزر والإثم، يرمى من قد رفع الله محله وأرسله من خلقه رحمة للعالمين وحجة للمجتهدين.

لم يقتصر الخيال الأسطور للفكر الإسلامى على اتهام داود عليه السلام باغتصاب زوجة رجل آخر من جنوده، وضمها إلى نسائه - اللاتى بلغن ٩٩ كما تقول الرويات — بعد تدبير مؤامرة للتخلص من زوجها، وهو أمر تأبى الرجال ذووا

---

١١٦) الثعلبى صـ ٢٧٩ - ٢٨٠.

المبادئ الأخلاقية أن يفعلوه، فضلاً عن نبى موحى إليه ! وهم — أى رواة هذه القصة —، وإن كانوا قد استبعدوا قصة مضاجعة داود لها، وهى على ذمة رجل آخر، كما نص على ذلك فى الكتاب المقدس (سفر صموئيل الثانى) إلا أنهم نسبوا إليه أفعالاً لا تليق به كنبى، ألا وهى أنه سأل الزوج أن يتنازل له عن زوجته، على الرغم من أن عنده عدداً كبيراً من النساء فى رأى، وفى رواية أخرى أنه خطب هذه المرأة بعد أن خطبها آخر، فهذه تصرفات لا تليق برجل متدين — أو على الأقل يحرص على عمد التعدى على حق الآخرين —، فضلاً عن رسول اصطفاه الله من خلقه [١١٧]، وذلك كله تبريراً — أو تفسيراً — لتسور الخصمين على داود فى محرابه، لسؤاله عما يراه فى رجل يملك تسعاً وتسعين نعجة، ويريد أن يأخذ من آخر نعجته التى لا يملك سواها، مفسرين ذلك بأن التعبير بالنعجة كناية عن المرأة، فالنعاج التسع والتسعين كناية عن النساء اللائى لدى سليمان، والنعجة الواحدة كناية عن المرأة التى تخلص من زوجها ليتزوجها، وذلك ضرب من الخيال لا أساس له، فلم يشر القرآن الكريم إلى شيء من ذلك، فإذا اعتبروا ذلك من قبيل المجاز اللغوى، فهذا غير صحيح،

---

١١٧) يرى الرازى أن مانسبه الرواة إلى داود ﷺ فى هذه القصة باطل من عدة وجوه: الأول: أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس، وأشدهم فجوراً لاستنكف منها، والرجل الحوشى الخبيث الذى يقرر تلك القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ فى تنزيه نفسه، وربما لعن من ينسبه إليها، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم إليه. الثانى: أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين: إلى السعى فى قتل رجل مسلم بغير حق، وإلى الطمع فى زوجته، أما الأول، فأمر منكر، قال ﷺ: " من سعى فى دم مسلم، ولو بشطر كلمة، جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه: آيس من رحمة الله " وأما الثانى، فمنكر عظيم، قال ﷺ: " المسلم من سلم المسلون من لسانه ويده "، وإن أوريا لم يسلم من داود، لا فى روحه، ولا فى منكوحه. والثالث: أن الله تعالى وصف داود ﷺ قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشر المذكور، ووصفه أيضاً بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة، وكل هذه الصفات تنافى كونه ﷺ موصوفاً بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح." [جـ ٢٦ صـ ١٦٥]

لأنه ليس هناك قرينة تصرف التعبير بالنعاج عن معناه الحقيقى إلى المعنى المجازى.

لم يقتصر الفكر الإسلامى على هذا التصور الخيالى فى تفسير هذه الآيات، بل نسج أسطورة أخرى حول حقيقة الخصم فى قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ ﴾، فقد قال بعض الرواة: " إن جماعة من الأعداء طمعوا فى أن يقتلوا نبى الله داود عليه السلام، وكان له يوم يخلو فيه بنفسه، ويشتغل بطاعة ربه، فانتهزوا الفرصة فى ذلك اليوم وتسوروا المحراب، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواماً يمنعونه منهم، فخافوا فوضعوا كذباً، فقالوا: خصمان بغى بعضنا على بعض....." [١١٨]

وروى أنهما كانا مَلَكين نزلا من السماء، وأرادا تنبيه داود عليه السلام على قبح العمل الذى أقدم عليه، وأنكر آخرون أنهما كانا مَلَكين، محتجين بأنهما لو كانا مَلَكين لكانا كاذبين فى قولهما: خصمان؛ فإنه ليس بين الملائكة خصومة، ولكانا كاذبين فى قولهما: ﴿ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، ولكانا كاذبين فى قولهما: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ ﴾، فثبت أنهما لو كانا مَلَكين لكانا كاذبين، والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، ولقوله: ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم: ٦]

أجاب الذاهبون إلى القول الأول عن هذا الكلام بأن قالوا: إن المَلَكين إنما ذكروا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل، لا على سبيل التحقيق، فلم يلزم الكذب.

---

١١٨) الرازى جـ ٢٦ صـ ١٦٨.

وأجيب عن هذا الجواب بأن ما ذكرتم يقتضى العدول عن ظاهر اللفظ، ومعلوم أنه على خلاف الأصل. أما إذا حملنا الكلام على أن الخصمين كانا رجلين دخلا عليه لغرض الشر، ثم وضعا هذا الحديث الباطل، فحينئذ لزم إسناد الكذب إلى شخصين فاسقين، فكان هذا أولى من القول الأول." [١١٩]

وبناءً على ماسبق يمكن القول: كان الخصمان رجلين من رعية داود عليه السلام نشأ بينهما نزاع بسبب جشع أحدهما ومحاولته الا ستيلاء على ما عند الآخر، رغم قلته، ووفرة ماعنده من هذا الصنف، واشتد النزاع بينهما لدرجة أنهما لم يصبرا حتى يخرج داود عليه السلام من محرابه، فتسوراه ليعرضا على داود مشكلتهما، فلما قضى بينهما ظن أن الله أراد أن يفتنه فأرسل إليه مَلَكَـــان على هذا النحو، ثم تبين له أن هـــذا الظن غير صحيح[١٢٠]،

---

١١٩) المصدر السابق جـ ٢٦ صـ ١٧٠ – ١٧١.

١٢٠) ذهب الرازى إلى تفسير الآية على نحو آخر، فقال: "... ليس فى لفظ القرآن ما يمكن أن يحتج به فى إلحاق الذنب بداود إلا ألفاظ أربعة. أحدها: قوله: ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾، وثانيها: قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ ﴾. وثالثها: ﴿ وَأَنَابَ ﴾ورابعها: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾إنَّا ثم نقول: وهذه الألفاظ لا يدل شيء منها على ما ذكروه، وتقريره من وجوه: الأول: أنهم لما دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق، وعلم داود عليه السلام ذلك، دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم، إلا أنه مال إلى الصفح والتجاوز عنهم طلباً لمرضاة الله، قال: وكانت هذه الواقعة هى الفتنة، لأنها جارية مجرى الابتلاء والامتحان، ثم استغفر ربه مما همَّ به من الانتقام منهم، وتاب عن ذلك الهم وأناب، فغفر له ذلك القدر من الهم والعزم. والثانى: أنه وإن غلب على ظنه أنهم دخلوا عليه ليقتلوه، إلا أنه ندم على ذلك الظن، وقال: لما لم تقم دلالة، ولا أمارة على أن الأمر كذلك، فبئسما علمت بهم حيث ظننت بهم ذلك الظن الرديء، فكان هذا هو المراد من قوله: ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ منه فغفر الله له ذلك. الثالث: أن دخولهم عليه كان فتنة لداود عليه السلام، إلا أنه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله، كما قال فى حق محمد ﷺ: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد: ١٩]، فداود عليه السلام استغفر لهم وأناب، أى رجع إلى الله تعالى فى طلب مغفرة ذلك الداخل القاصد للقتل، وقوله: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾أى غفرنا له ذلك لأجل احترام داود ولتعظيمه" جـ ٢٦ صـ ١٦٩.

فاستغفر ربه [١٢١]، فغفر الله له وهذه الآيات التى اشتملت على ثلاثة موضوعات، الأول: ذكر الله ما أنعم به على داود وهى الآيات من رقم ١٧ إلى رقم ٢٠، وهذه الآيات (من رقم ٢١ إلى رقم ٢٥) تبين الجانب الثانى من الجوانب التى ذكرتها سورة " ص " عن داود عليه السلام، وهو توضيح أن الله أراد أن يختبر قدرة داود على الحكم، وبيان مدى إمكاناته على الفصل فى قضايا النزاع بين الرعية، توطئة للحديث عن الجانب الثالث، ألا وهو تنصيبه خليفة فى

---

١٢١) قال وهب بن منبه: لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة، لا ترقأ له دمعة ليلاً ولا نهاراً، وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة، وقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أقسام: يعنى أربعة أيام، فجعل يوماً للقضاء بين الناس، ويوماً لنسائه، ويوماً يسبح فى الفياق والجبال والقفار والسواحل، ويوماً يخلو فى داره، وفيها أربعة آلاف محراب، فيجتمع إليه الرهبان، فينوح بعضهم على بعض، ويساعدونه على ذلك، فإذا كان يوم سياحته يخرج إلى الفياق فيرفع صوته كالمزامير ويبكى، فيبكى معه الشجر والمدر والطير والوحش حتى يسيل من دموعه مثل الأنهار، ثم يجيء إلى الجبال فيرفع صوته كالمزامير فيبكى وتبكى معه الجبال والحجارة والدواب والطير حتى تسيل الأودية من بكائهم، ثم يجيء إلى الساحل فيرفع صوته كالمزامير، فيبكى وتبكى معه الحيتان ودواب البحر والطير والماء والسباع، فإذا أمسى رجع، فإذا كان يوم نوحه على نفسه نادى مناديه: إن اليوم يوم نوح داود على نفسه، فليحضر من يساعده، قال: فيدخل الدار التى فيها المحاريب، فيبسط له ثلاثة فرش من مسوح، حشوها الليف ليجلس عليها، وتجيء الرهبان، أربعة آلاف راهب. عليهم البرانس، وعليهم المسوح، وفى أيديهم العصى، ثم يجلسون فى تلك المحاريب، ثم يرفع صوته بالبكاء والنوح، فيرفع الرهبان معه أصواتهم، فلايزال يبكى حتى يغرق الفرش من دموعه، ويقع داود فيها مثل الفرخ يضطرب، فيجيء ابنه سليمان عليه السلام فيحمله، فيأخذ داود من تلك الدموع بكفه، ثم يمسح بها وجهه، ويقول: يارب اغفر لى ما ترى، فلو عدل بكاء داود ودموعه ببكاء أهل الأرض ودموعهم لعدلها ". [الثعلبى صـ ٢٨٥]

أيوجد من يفوق هذا فى الخيال الأسطورى؟ من أين للفكر الإسلامى هذا الخيال الأسطورى الذى بلغ مداه، على الرغم من أن القرآن الكريم لن يشر إلى شيء من هذا، لا من قريب، ولا من بعيد؟ إنه الولع بالسرد الأسطورى للسيطرة على الوجدان الدينى للعامة،وكم عانى الفكر الدينى فى المجتمع الإسلامى من هذه الظاهرة، التى كبلت المسلمين، ومنعتهم من الانطلاق نحو الرقى والتقدم، كما أعطت سلاحاً لأعداء الإسلام ليشوشوا على مبادئ الإسلام الصافيه، التى تتفق مع المنطق العقلى السليم، وتتناغم مع مسيرة التقدم فى جميع مجالات الحياة.

الأرض بناءً على نجاحه فى الفصل بين المتنازعين اللذين تسورا عليه المحراب، وهو ما سنبينه فى الأسطر التالية.

الموضوع الثالث: الحديث عن تنصيب الله داود عليه السلام خليفة فى الأرض، وتوجيه الوصية له بأن يحكم بين الناس بالحق، ولا يتبع الهوى حتى لا يضل عن سبيل الله، وتلك وصية للحكام جميعاً، يقول الله تعالى:

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص: ٢٦]

فهذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيل الله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد.

النملة والهدهد

يقول الله تعالى:

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [النمل: ١٧ – ٢١]

قال ابن كثير: " أورد ابن عساكر من طريق إسحق بن بشر، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن: أن اسم هذه النملة حرس، وأنها من قبيلة يقال لهم: بنو الشيصان، وأنها كانت عرجاء، وكانت بقدر الذئب..... ومن قال من المفسرين: إن هذا الوادى كان بأرض الشام أو بغيره، وأن هذه النملة كانت ذاجناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها. وعن نوف البكالى أنه قال: كان نمل سليمان أمثال الذئاب.....

قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندساً يدل سليمان على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه، فنظر له الماء فى تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلهم عليه، أمر سليمان عليه السلام الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان عليه السلام يوماً بفلاة من

الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره [١٢٢]، فقال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾. حدَّث يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفى القوم رجل من الخوارج يقال له نافع بن الأزرق، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس؛ فقال له: قف يا ابن عباس، غلبت اليوم، قال: و لم؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه ير الماء فى تخوم الأرض، وإن الصبى ليضع له الحبة فى الفخ ويحثو على الفخ تراباً، فيجيء الهدهد ليأخذها، فيقع فى الفخ فيصيده الصبى، فقال ابن عباس: لولا أن يذهب هذا فيقول: رددت على ابن عباس لما أجبته، ثم قال له: ويحك ! إنه إذا نزل القدر عمى البصر وذهب الحذر، فقال له نافع: والله لا أجادلك فى شيء من القرآن أبداً.....[١٢٣]

ألم يوجد فى عصر سليمان ومملكته غير هدهد واحد من هذا النوع من الطيور؟

وما الذى ميزه عن بقية أفراد نوعه؟

نرى الإجابة عن هذين السؤالين فى ثنايا تفسير ابن كثير؛ إذ على الرغم من تأثره بالصورة العامة فى المجتمع الإنسانى — والإسلامى أيضاً —، حيث يميل

---

١٢٢) روى الثعالبى: أن سليمان عليه السلام " سار نحو اليمن يوم نجم سهيل، فوافى صنعاء وقت الزوال، وذلك مسيرة شهر، فرأى أرضاً بيضاء حسنة تزهو بخضرتها، فأحب النزول بها ليصلى ويتغذى، فطلبوا الماء فلم يجدوه (كيف يستقيم ذلك والأرض مخضرة، أليس وجود الماء سبباً لخضرتها !)، وكان الهدهد دليله، وكان يرى الماء من تحت الأرض، كما يرى أحدكم كأسه بيده، فينقر الأرض، فيعرف موضع الماء وعمقه، ثم تجيء الشياطين فيسلخونه كما يسلخ الإهاب يستخرجون الماء. قال سعيد بن جبير: لما ذكر ابن عباس هذا الحديث قال له نافع بن الأزرق: كيف يبصر الماء من تحت الأرض ولا يبصر الفخ إذا غطى له بقدر أصبع من تراب؟ قال: ويحك ! إذا جاء القدر عمى البصر. وروى قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: " **أنهاكم عن قتل الهدهد، فإنه كان دليل سليمان على الماء** "، فطلب سليمان الهدهد فلم يجده، فتوعده...." [صـ ٣١١].

١٢٣) تفسير القرآن العظيم جـ ٥ صـ ٢٢٧ -٢٢٨.

الناس إلى الجانب الأسطورى فى تفسير النصوص الدينية، فقد ظهر جانب عقلانى فى ثنايا هذا التفسير، عندما ذكر أن الهدهد كان مهندساً خبيراً بالبحث عن المياه فى باطن الأرض فى المناطق الصحراوية، وهذا يقودنا إلى الميل إلى رأى من يقول: إن كلمة " الطير " كانت علماً على سلاح المهندسين فى جيش سليمان عليه السلام، وأن الهدهد كان فرداً من هذا السلاح، يمتاز بالخبرة فى معرفة مواطن المياه فى باطن الأرض. كذلك يرى هذا الفريق فى تفسير النملة التى حذرت قومها: أنه كان هناك وادياً مكتظاً بالسكان، ولهذا أطلقوا عليه وادى النمل، فالنملة لا تخرج عن كونها واحدة من سكان هذا الوادى. [١٢٤]

تسخير الريح والجن

يقول الله تعالى:

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ: ١٢ – ١٣]

قال الحسن البصرى: " كان – أى سليمان – يغدو على بساطه من دمشق، فيترل باصطخر يتغذى بها، ويذهب رائحاً من اصطخر [١٢٥] فيبيت بكابل، وبين

---

١٢٤) راجع: النجار صـ ٣٣٦ نقلاً عن مقالة لزكى باشا فى جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ١٩٣٣/٨/٦م

١٢٥) إصطخر: مدينة قديمة تقع فى جنوب إيران، فى محافظة فارس، على بعد خمسة كيلو مترات إلى الشمال من أنقاض مدينة برسيبوليس. كانت مدينة مزدهرة خلال فترة الدولة الأخمينية. ثم أصبحت عاصمة الدولة الساسانية قبل نقل العاصمة إلى قطيفون. أُحرِقت المدينة أثناء الفتح الإسلامى لبلاد فارس. بعد إعادة بنائها فقدت المدينة أهميتها إلى مدينة شيراز. وهى اليوم موقع أثرى.

اصطخر وكابل شهر كامل للمسرع، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع ". [١٢٦]

قال ابن زيد فى قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ كان له (أى سليمان) مراكب من خشب، وكان فيه ألف ركن، فى كل ركن ألف بيت، تركب فيه الجن والإنس، تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك المركب هم والعصار، فإذا ارتفع أتت الريح الرخاء، فسارت به، وساروا معه، يقيل عند قوم بينه وبينهم شهر، ويمسى عند قوم بينه وبينهم شهر، ولا يدرى القوم إلا وقد أظلهم، معه الجيوش والجنود.... كان يغدو فيقيل فى اصطخر، ثم يروح فيكون رواحها فى كابل.... [١٢٧]

هل كانتا — إصطخر وكابل — ضمن مملكته؟

لم يقل أحد بذلك بل إن الباحث فى تاريخ الشرق الأوسط يجد أنه على طول ما عاش الإسرائيليون فى فلسطين، وما خاضوا من حروب مع جيرانهم العرب وغيرهم، لم نجد لهم ذكراً فى كتب المؤرخين المعاصرين لهم — كبقية الشعوب الأخرى — مما يدل على أن الشعب اليهودى لم يكن سوى شعب قبلى، حروبه عبارة عن غزوات قبلية ضئيلة، يمكن أن تكون أشبه بتلك التى كانت تحدث فى الجزيرة العربية فى زمن الجاهلية، بل إن التوراة نفسها لم تذكر أن اليهود قد سيطروا على فلسطين كلها فى يوم من الأيام، على الرغم من صغر مساحتها. بل إن سليمان فى مجده الذى أضفته عليه الأساطير العبرية الخيالية لم يكن فى الواقع إلا ملكاً صغيراً يحكم مدينة صغيرة، وأن ما أضفته الأساطير عليه من مجد وجاه ليس إلا تقديراً نسبياً يقاس بمن حوله من الملوك والأمراء القبليين فى

---

١٢٦) ابن كثير جـ ٥ صـ ٥٣٤

١٢٧) الطبرى: جامع البيان فى تفسير القرآن جـ ٢٢ صـ ٤٨

فلسطين وما حولها، كما أن هيكله — إذا قيس بأبعاده التى جاءت فى سفر الملوك — لا يعدو أن يكون بحجم كنيسة صغيرة من كنائس الضواحى فى المدن الأوربية، على حد تعبير المؤرخ الكبير " ويلز Wells " الذى يضيف بأنه لايقارن بضخامة المعابد البابلية أو المصرية القديمة. وقد أكد العالم الأثرى المشهور " برستد Breasted " أن سليمان الحكيم لم يكن سوى والياً من الولاة الخاضعين للحكم المصرى. [١٢٨]

كثير من النصوص الدينية لا تحتمل إلا معنى واحداً، فلا يجوز فيها المجاز، ولا غيره من التأويلات المستندة إلى القواعد اللغوية التى تصرف اللفظ عن معناه الأصلى إلى آخر مجازى، الأمر الذى يجعل النص مؤدياً لمعنى واحد، لا يجوز لعلماء الدين تجاوزه، وإلا خرج عن السياق، وتصادم مع ما هو معروف من الأساليب اللغوية. وعليه، فلا يمكن تطبيق النص إلا على نظام معين من حياة المجتمعات الإنسانية المختلفة، فهو محصور بين أطر حياتية معينة، ومرتبط بزمن ومكان محدودين، ولذا فعندما تتطور أساليب الحياة فى المجتمعات البشرية، يصبح النص المقدس غير صالح للتطبيق. كذلك لا يمكن تطبيقه على كل المجتمعات الإنسانية المختلفة فى حياتها، والمتعددة فى ثقافتها، والمتباينة فى وضعها الجغرافى والتاريخى.

ولما كان الإسلام لكل البشر، على اختلاف ثقافتهم، وتنوع حضاراتهم، وتباين مناطقهم الجغرافية، وتطور نظام حياتهم عبر القرون، فقد جاء القرآن الكريم — فى كثير من آياته — يحتمل أكثر من معنى، بحيث يستطيع أن يفهم كل جيل من نصوصه ما يناسب حياته ويتفق مع زمانه، ويتلاءم مع حضارته،

---

١٢٨) إسكندر ٣٢

وصدق على بن أبي طالب ﷺ فى قوله: " القرآن حمال أوجه"، وتلك ميزة ترفعه إلى حد الإعجاز؛ إذ لا يستطيع بشر، مهما أوتى من البلاغة والفصاحة أن يؤلف نصاً له هذه الصلاحية، إذ لا يتأتى ذلك إلا من العليم القدير ﷻ، فهو القادر وحده على ذلك، وتلك إحدى جوانب الإعجاز فى القرآن الكريم التى تبرهن على أنه من الله وليس من البشر؛ إذ أنه صيغ بأسلوب تفهمه كل طبقات المجتمع، ويستخرج منه كل إنسان فى كل عصر ما يلائم حياته، ويتفق مع ثقافته ووضعه الاجتماعى، ويتلاءم مع الاتجاهات الفكرية فى عصره.....إلخ، كما أن المفكر يفهمه على نحو آخر يتناسب مع قدرته الفكرية، ويلائم عصره وبيئته الجغرافية، فإذا طبقنا هذا التصور على قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ نجد أن ما سبق بيانه لهذه الآية كان مناسباً للعصور السابقة، وللبيئات التى تميل إلى هذا النوع من الأساطير، أما فى عصرنا الحالى فيمكن فهم هذا النص على نحو مخالف، ألا وهو: أن سليمان ﷺ كان يملك مراكب شراعية يسيرها الريح، فأطلق القرآن الكريم الريح على المراكب، وهذه قاعدة لغوية، إذ يمكن (لغوياً) إطلاق السبب على المسبب [١٢٩]، فالريح سبب فى تسيير المراكب الشراعية، والمعنى:

---

١٢٩) أمثلة لإطلاق اسم السبب على المسبب، وإن شئت فقل: إطلاق العلة على المعلول، سواء كانت العلة فاعلية، أو قابلية، أو صورية، أو غائية، فمثال الأول قولهم: نزل السحاب، أى المطر، فإن السحاب فى العرف سبب فاعلى فى المطر، كما يقال: النار تحرق الثوب، ومنه إطلاق النظر على الرؤية، كقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣] أى له رائية، ونحو: نظرت إلى فلان، أى رأيته، لأن النظر فعل الفاعل، وهو سبب الرؤية. ومثال الثانى قولهم: سال الوادى، فإن السائل هو الماء، والوادى سبب قابل لمسيل الماء فيه... ومثال الثالث: إطلاق اليد على القدرة كقوله تعالى ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴿١٠﴾ ﴾[الفتح: ١٠]، واليد صورة خاصة يتأتى بها الإقدار على الشيء.... وهو سبب-

ولسليمان مراكب شراعية تسيرها الريح فى غدوها ورواحها، وهـذا التفسير يقنع كل مفكر وكل فيلسوف، فلا يستطيع أحد الاعتراض على النص بحجة أن تسيير الريح له نظام خاص على سطح الكرة الأرضية، لا يمكن لأحد التحكم فيه وتسييره على هواه، وإلا اختل نظام الكون.

وعليه، فالنص يخاطب جميع الناس، على اختلاف ثقافتهم، وتفاوت درجة حضارتهم، وتنوع تقدمهم فى البحث العلمى، فالقرآن الكريم مليء بالكنوز الفكرية والصور البيانية لا ينضب معينها، فكلما تقدم الزمن، وارتفع ثقف الاتجاهات الفكرية قيض الله له من يستطيع الكشف عن بعض هذه الكنوز لتلائم العصور وتنسجم مع التقدم الحضارى.

=صورى.... ومثال الرابع: تسمية العصير خمراً، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقولهم: رعينا الغيث، أى النبات الذى سببه الغيث، قال الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم * رعيناه وإن كانوا غضابا

وهو المطر، لأنه سبب غائى للمطر....

عفريت من الجن

لم يأت هذا التعبير فى القرآن الكريم إلا مرة واحدة، وذلك عندما سأل سليمان عليه السلام من حوله عمن يأتيه بعرش بلقيس: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل: ٣٨ – ٤٠]

فمن هو هذا العفريت؟ وما طبيعته؟

العفريت: مفرد، جمعه: عفاريت، وتستخدم كلمة: **عفريت** للدلالة على شخصيات معينة، غالباً ما تكون خرافية أو خيالية، وأحياناً يمكن أن تذكر كشخصيات حقيقية، لها وجودها فى عالمنا، وموضع خرافية أو حقيقة وجودهم تتعلق عادة بمعتقدات الشعوب، وطريقة تفكيرهم، أو عقيدتهم وما ورثوه من أسلافهم. وقد تم ذكر العفاريت فى أكثر المواضع من القصص، والحكايات الشعبية، والأساطير المختلفة، والتراث المتناقل بين الأجيال، كما تم ذكرهم فى كثير من الأديان.

وقد تنوعت شخصيات العفاريت وأشكالها، فمنهم من هو طيب وخيِّر، ومنهم من هو شرير وخبيث. وبالنسبة لأشكالهم، فتارة يتم ذكرهم على أنهم ذووا وجه حسن، وأخرى بأنهم ذووا وجه قبيح، كما أن منهم الطويل جداً، ومنهم القصير جداً، بعضهم يشبه البشر، والبعض الآخر يشبه، أو فيه خصلة من أحد الحيوانات، وكثير منهم قادر على تحويل أشكاله وصوته. ويعود هذا

الاختلاف والتنوع فى شخصياتهم وأشكالهم إلى طبيعة دورهم الذى يلعبونه فى القصة المحكية عنهم، وهكذا فعندما يتم ذكرهم على أنهم سيئون، غالباً ما يتم تصويرهم على أنهم قبيحون، والعكس بالعكس.

والعفريت كان — ومازال — له مكانة هامة فى الإنتاج الأدبى والفلكلورى للشعوب، فهو يظهر فى القصص المحكية، وفى الأفلام السينمائية، وأفلام الكرتون، وألعاب الفيديو، كما تم تجسيد شخصيته فى الكثير من المسرحيات.

العفريت من الفعل الثلاثى: (ع ف ر)، ويجمع على عفاريت، ومعنى الكلمة: الخبيث — الماكر — الداهية — الداهية الخبيث الشرير — الشديد القوى — المتشيطن، وأيضاً يأتى بمعنى عرف لديك. وتستعمل الكلمة فى العربية المعاصرة بمعنى المبالغة، سواء بالحركة، أو بالدهاء والمكر، بالإضافة إلى استعمالها للدلالة على العفريت بمعناه القصصى.

ونظراً لتعدد القصص والحكايات التى تتحدث عن العفاريت فى مختلف أنحاء العالم، فقد أدى ذلك إلى تنوع فى الكلمات الدالة على العفاريت، سواء فى القصص العربية، أو فى قصص الشعوب الأخرى، ويمكن لكل الكلمات التالية أن تكون دالة على كلمة عفريت بمعناها لقصصى: مارد — جنى — الساحر — المخلوق الصغير — القزم — الطيف — الخيال — الظل — السواد — الشبح — الشيطان.

وقد استعملت كلمة " **العفريت** " فى الأمثال الشعبية مثل:

- " **يللى يخاف من العفريت يطلعه** "
- " **على كف عفريت** "
- " **زى العفريت** "
- " **راكبه عفريت** " أو " **راكبها عفريت** "

- " له فى كل خرابة عفريت "
- " أول مرة بدر منور، وتانى مرة رغيف مدور، وثالث مرة عفريت مصور "
- " عيشهم فى كبريت، اللى ياكلوه يسير عفريت "
- " سيبنى وروقنى وخلى العفاريت تركبنى "
- " الزيت والكبريت شردوا العفاريت "
- زى عفاريت القيالة مايتهدوش " [١٣٠]

والجن: وصف يطلق على كل شيء صفته الاستتار، كالجنين فى بطن أمه، وكالأفاعى التى تختبئ فى جحور تحت الأرض: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النمل: ١٠ – ٩٣ والقصص: ٣١]، وكذلك تطلق على الليل إذا اختلط ظلامه، فيقال: جنَّ الليل، أى ستر كل شيء، وكذلك تعنى كمفردة عكس "المؤانسة "، يعنى الابتعاد عن التجمعات البشرية التى تأنس ببعضها. ومن هذا الباب يطلق العرب كلمة: "جن" على الغرباء، كما ورد فى سورة الجن، التى تتحدث عن وفد نصيبين، شمال العراق، الذين أتوا إلى مكة تحت جنح الظلام، وقد قابلهم الرسول ﷺ خارج مكة، ثم فى الصباح أرى أصحابه مكانهم، وآثار نيرانهم. فهل للجن آثار يمكن رؤيتها بالعين المجردة؟ إذن الجن من البشر الغرباء. وكذلك تطلق على كل مستكبر مستتر، كما فى قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠]، وكذلك تطلق على كل ما لايمكن رؤيته، كالجراثيم، كما ورد فى الأحاديث النبوية الشريفة التى تحث على النظافة.

---

١٣٠) Ar.wikipedia.org

فجر الأستاذ الدكتور محمد البهى فى أوائل سبعينات القرن العشرين قضية فكرية هزت مسلمات لدى قطاع كبير من المسلمين، فانبرى كثير من العلماء للرد عليه بالشرح والتأويل وسرد الأدلة، ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة واضحة تؤكد وجود عالم ثالث، هو عالم الجن، باعتبار أنه مكمل لعالمى: الإنس والملائكة، ذلك أنه جاء فى تفسيره لسورة الجن برأى لم يسبقه أحد إليه عبر تاريخ الفكر الإسلامى، ودعمه بمسلمات عقلية وآيات قرآنية لم يستطع أحد من العلماء الذين انبروا للرد عليه دحضها أو النيل من مضمونها، فقد جاءت ردودهم فى معظمها عاطفية، ومستندة إلى روايات ضعيفة السند.

ولهذا كان من مقتضيات البحث العلمى — ونحن نتحدث عن الجن — أن نعرض فقرات ملخصة لما جاء فى تفسيره لسورة الجن:

١. الجن موجود قطعاً، وهم قوى مخلوقة من نار صافية، ولهذا كانوا قوى روحية.

٢. وعالم الجن قائم إلى يوم البعث، لامرية فى ذلك.

٣. أما موجوداته الأصلية فهى طبائع الملائكة، وهى: العناصر الخيِّرَة المطيعة. وطبيعة إبليس كذلك، وهو العنصر الشرير فيها. وهو قد وصل إلى الشر بعد أن عصى ربه، فلم يسجد لآدم كما سجدت جميع الملائكة عداءً معتزاً بأنه خُلق من نار، بينما آدم خُلق من طين: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١١ – ١٢]، فإبليس خُلق من نار، وكان من الملائكة. وإذن الملائكة جميعاً مخلوقون من نار صافية مشعة. وهو

من الجن أيضاً — والملائكة كذلك — لقوله تعالى: فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ ﴿٥٠﴾ [الكهف: ٥٠]، فالأمر الموجه إلى الملائكة فى قوله: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ يشمل إبليس حتماً، وإلا لم يكن عاصياً بمخالفة السجود، لأنه عندئذ لم يكن داخلاً ضمن نطاق مَنْ أمرهم الله بالسجود لآدم، فإبليس مَلَك عصى ربه، وإبليس جان من عالم غير المرئيات. والملائكة من الجن، كما هم من النار الصافية.

٤. ويدخل فى عالم الجن — ملحقاً بطبائعه الأصلية — من يتخفى من عالم الإنسان: فى إيمانه، وكفره، وفى خيره وشره،: باعتبار: أن هذا الذى يتخفى غير ظاهر وغير مرئى. وذلك كشياطين الجن، فإنهم من الإنسان، يُخْفون شرهم وكيدهم لدين الله وللمؤمنين به، وصدهم عن سبيل الله، وجاء فى قوله تعالى: إنه يراكم (أى الشيطان، وهو إبليس يراكم) هو وقبيله (هو وأعوانه من الشياطين) من حيث لا ترونهم (لأن إبليس بحكم طبيعته من عالم الجن، وأعوانه بحكم تخفيهم فى الشر، أُلْحِقوا بهذا العالم وأصبحوا شياطين الجن).

ومثل هذا الفريق الشرير من الناس فى إلحاقه بعالم الجن لتخفيه فى الكفر والإيذاء، والإغراء: فريق آخر من الناس أيضاً تخفى فى إيمانه، ولم يظهر فى تعرفه على الهداية، وفى تبشيره بالدعوة لدين الله. وهو هذا الفريق الذى أعلن عنه الوحى فى سورة الجن، فى قوله تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ﴿١﴾ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ﴿٢﴾﴾[الجن: ١ – ٢]، وكذلك فى سورة الأحقاف فى قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ

إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ (أى من العالم غير المرئى، ولكن ليس من القوى النارية) يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ (أى فلما انتهت تلاوته) وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ (أى عادوا مسرعين إلى قومهم) قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ (وما بين يدى القرآن: هوالتوراة والإنجيل. وبكن التوراة على وجه أخص لأنه كتاب هداية وتشريع كالقرآن)يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ (وهو العقيدة والشريعة)وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾(وهو الهداية والسلوك السوى) يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

[الأحقاف: ٢٩ – ٣٢]

فهذا الفريق الذى تخفى، ولم يكن معروفاً للمكيين –حتى كذلك لرسول الله ﷺ – عند سماعه القرآن بمكة، ثم فى إيمانه وفى دعوته وتبشيره بين قومه....هو من البشر، وليس من القوى النارية، ويرجح إلى درجة كبيرة أن يكون من " يثرب "..... فرسالة الإسلام بما فيها من دعوة إلى الإيمان بوحدة الألوهية، وبما فيها من وعد للمؤمنين، ووعيد لمن بقى على كفره، هى للناس ولعالم الإنس، وليست لتلك القوى الأخرى التى خُلقَت من نار، وهى الملائكة التى توجد فى العالم الثانى، وهو العالم غير المرئى، أو عالم الجن، وذلك لأنه:

أولاً: أن القوى النارية، وهى الملائكة، اختُبِرَت فى طاعتها لله، عندما أمرها سبحانه بالسجود لآدم، وقد أطاعت جميعها، عدا واحداً منها فقط، وهو إبليس. والتكليف بالرسالة الإلهية اختبار قائم لمن يطيع، ولمن يبقى على كفره. وذلك وضع ليس موجوداً بين الملائكة، بعد أن سجدت لآدم. وهى لا تتوالد ولا تتناسل حتى يكون لها أجيال متتابعة، حتى

يمكن أن يستمر اختبارها، لأن تعبير القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾.. وبقوله فى سورة الحجر: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحجر: ٣٠ - ٣١]..لأن تعبيره عن الملائكة بصيغة الجمع وبصفة الشمول: ﴿ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ يفيد أن ما أراده الله من إعداد الملائكة فى كونه متكامل من أول خلقهم. بينما لم يوجد عندئذ – أى عند تكامل الملائكة – من عالم الإنس إلا آدم وحواء....إلا ذكر وأنثى فقط، مما يدل على أن هذا العالم سيتكاثر ويتزايد تباعاً، جيلاً بعد جيل. ولذا أرسل الله إلى البشر عدة رسل برسالة الله فى عهود مختلفة من تاريخهم، وجاءت رسالة محمد ﷺ خاتمة الرسالات بدين الله...إلى يوم البعث.

ثانياً:أن الملائكة لا ذنوب لها، لا قبل أمرها بالسجود لأنها لم تعص، ولا بعد أن أطاعت فسجدت. فما معنى غفران الذنوب فى قوله تعالى، كما جاء على لسان فريق من الجن هنا فى سورة الأحقاف:﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، ثم مامعنى قول هذا الفريق أيضاً هنا: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾... علماً بأن الذى عصى من الملائكة واحد، وقد عُرِف، ثم لحقه بالفعل عقاب من الله، على أن يكون العقاب الأخير له فى جهنم.

ثالثاً: أن رسالة الله للبشر تحددت فى مشيئته بعدما أخفق آدم – ومعه حواء – فى الاختبار الذى وضع أمامه، وهو عدم اقترابهما من شجرة معينة بين أشجار الجنة.....

رابعاً: لو كانت الملائكة – أو لقوة النارية الخفية، وهى الجن – مكلفة برسالة إلهية، لكان لها رسول منها، وليس من البشر، أى من عالم آخر غير عالمها. وقد كانت سنة الله فى رسالته: أن لا يرسل رسولاً إلى قوم إلا بلسانهم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤]، وذلك حتى تقوم الحجة على من يكلفون بالرسالة، ورسالة الرسول محمد ﷺ هى رسالة عامة، ولكن للناس دون غيرهم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ: ٢٨]... والحصر فى التعبير هنا يحول قطعاً دون أن تكون رسالته لغير عالم الإنس.....

وعلى هذا التقابل بين عالم الجن، وهو العالم غير المرئى، وغير المعهود من مخلوقات الله، وعالم الإنس، وهو عالم الظاهر والمعهود من مخلوقات الله، فإن عالم الجن يضم:

أولاً: طبائع الملائكة الخَيِّرَة التى لم تعص الله، وبقيت على طاعته.

وثانياً: بعض من آمن من البشر برسول الله ﷺ، فى تخف وفى غير عهد بهم، وهم من نزل بهم الوحى لرسول الله ﷺ بمكة، فى سورتى الجن والأحقاف، وكذلك من آمن برسول سابق على هذا النحو، أو يؤمن برسالة الرسول بعده فى تخف من سلطة الحاكم، وفى بعد عن رقابة نظام حكم ملحد يصد عن سبيل الله،

وثالثاً: طبيعة إبليس الذى كان من الملائكة ومن الجن كذلك، وعصى ربه.....

ورابعاً: شياطين الجن وهم من البشر، تخفوا ويتخفون فى مباشرة الشر للناس،

والصد عن سبيل الله، وهؤلاء شياطين الجن، هم أعوان إبليس وقبيله. وهو معهم يرون الناس، والناس لا يرونهم: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وشياطين الجن أشبه بالخلايا السرية التى تعمل تحت الأرض وفى الخفاء على تقويض الإيمان بالله، والكيد للمؤمنين، فهم من الناس، ولكنهم متخفون فى مباشرتهم للكيد والصد عن سبيل الله..... أما شياطين الإنس فهم فى العالم المرئى، وهم الكبراء، أو الزعماء الذين يصدون عن سبيل الله علناً وفى غير خجل، كما هو وضع المستكبرين مع المستضعفين فى المجتمعات البشرية..... وشياطين الإنس يتكاثرون ويشتد ظهورهم، وتشتد بلبلتهم وتشويههم على دين الله، كلما طغت موجة مادية فى حياة الناس، وأخذ رجال الدين يحترفون بدينهم خدمة للشيطان"[١٣١].

وعليه، فَمَنْ عرض على سليمان عليه السلام أن يأتى بعرش بلقيس قبل أن يقوم من مكانه، هو رجل غير معروف فى بلاطه، رجل واسع الحيلة، وشديد الدهاء، من غير الظاهرين فى محيط من حوله، وليس — كما يعتقد العامة وكثير من أهل العلم — من عالم آخر، غيرمرئى، هو عالم الجن.

فإذا قارنا بين ما أجاب به العفريت على سؤال سليمان بأنه سيأتى بعرش بلقيس قبل أن يقوم سليمان من مقامه، وبين ما وعد به الذى عنده علم من الكتاب من أنه سيأتيه به قبل أن يرتد إليه طرفه، لوجدنا فرقاً شاسعاً بين أسلوبين فى العمل:

أحدهما: يقوم على " الفهلوة "، ليس له ضابط يحكمه مساره، ولا يقوم على

---

١٣١) البهى: تفسير سورة الجن صـ ٨ - ١٨

أساس يرتكز عليه، وهو ما أجاب به العفريت.

الثانى: عمل قائم على أسس علمية، ويرتكز على مقدمات تؤدى بالقطع إلى النتيجة المنشودة، وهذا المنهج منضبط بقواعد علمية، لا ينحرف عنها، ويسير فى خطوات محسوبة إلى الهدف المنشود.

أضف إلى ذلك أن الأول لم يحدد زمناً معيناً لإحضار العرش؛ فقد يقوم سليمان بعد فترة وجيزة، وقد يستمر حالساً ساعات، ربما تصل إلى نهاية اليوم، وذلك ضرب من الاحتمالات اللانهائية، أما الثانى فقد حدد الوقت تحديداً دقيقاً، وذلك بطرفة العين، وهذا هو لتحديد الذى يتسم به العلم، فضلاً عن السرعة الفائقة.

وهذا هو الهدف من نزول هذه الآيات فى القرآن الكريم على محمد ﷺ، إذ ليس الغرض الإخبار عن حدث، فهو ليس سجلاً للأحداث، بل هو عظة وهداية، فأراد الله ﷻ أن يوجه المسلمين إلى أهم شيء فى حياة الأمم والشعوب، ألا وهو العلم، فبه تتقدم الأمم، وبواسطته تبنى الشعوب حضارتها، وتُشَيِّد تقدمها؛ فمن يركن إلى الخزعبلات والأساطير، فهيهات أن يعيش فضلاً عن أن يحرز تقدماً فى مسار حياته.

أما من يسلك طريق العلم، ويتبع منهجه، فسوف يصل إلى حياة رغدة، وعيش كريم، يمنحه القوة على البقاء، ويعطيه العزم للتصدى لتقلبات الدهر، وغدر الشياطين من الإنس والجن.

ولما كان هذا هو الهدف من نزول هذه الآيات لم يبين الله ﷻ مَنْ مِنَ الإثنين: العفريت أوالذى عنده علم من الكتاب، أحضر العرش؟ لأن هذا ليس مهما فى هذا المجال، ولا ترتبط به فائدة، مادام قد حصل المقصود، ألا وهو إبعاد المسلمين عن عن الخرافات والأساطير فى حياتهم، ودفعهم إلى طريق

البحث العلمى، لأنه هو الذى سيوصلهم بأقصى سرعة إلى ما يبتغون فى حياتهم، وما يتطلعون إليه من رقى وازدهار.

جاءت صياغة الوحى على هذا النحو، ليخاطب كل طبقات المجتمع؛ فمن يميل إلى سماع وترديد الخرافات والأساطير فهم هذا المعنى من النص، ووجد فيه ما يشبع نهمه، ويلبى غرائزه - كما بينا ذلك سابقاً -، وفى الوقت نفسه يستطيع العلماء والمفكرون شرحه على نحو يتفق مع الآفاق الفكرية لديهم، وبما ينسجم مع المتطلبات العصرية فى مجال البحث العلمى، بل إن القرآن الكريم مليء بالأسرار التى لم تكتشف بعد، وهو مجال يسبح فيه الفلاسفة عبر العصور القادمة، فكلما تقدم البحث العلمى، فأظهر الجديد من أسرار ما حولنا من آفاق الطبيعة ومجال الكون الفسيح، اكتسب الباحثون قوة فى التفكير تمكنهم من كشف ما خفى على الأجيال السابقة من أسرار القرآن الكريم، فهو منبع للفكر لا ينضب حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

منسأة سليمان

يقول الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ: ١٤]

يقول المفسرون:

" يذكر الله تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام، وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له فى الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئًا على عصاه، وهى منسأته [١٣٢]، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما، ومجاهد، والحسن، وقتادة...: مدة طويلة، نحواً من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض، وهى الأرضة [١٣٣]، ضعفت وسقطت إلى الأرض، وعُلِم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة،

---

١٣٢) اختلف فى قراءة قوله: " منسأته "، فقرأ عامة قراء أهل المدينة، وبعض أهل البصرة: منساته، غير مهموز، وزعم من اعتل لقارئ ذلك أن المنساة: العصا، وأن أصلها من نسأت بها الغنم، قال: ومن الهمز الذى تركته العرب، كما تركوا همز النبى، والبرية، والخابية، وأنشد لترك الهمز بيتاً لبعض الشعراء:

إذ دببت على المنساة من هرم * فقد تباعد عنك اللهو والغزل

وذكر الفراء عن أبى جعفر الرواسى: أنه سأل عنها أبا عمرو، فقال: منساته بغير همز ». وقرأ عامة قراء الكوفة منسأته بالهمز، وكأنهم وجهوا ذلك إلى أنها مفعلة، من نسأت البعير، إذا زجرته، ليزداد سيره، كما يقال: نسأت اللبن، إذا صدرت عليه الماء، وهو النسيء، وكما يقال: نسأ الله فى أجلك، أى أدام الله فى أيام حياتك. قال أبو جعفر: وهما قراءتان، قد قرأ بكل واحدة منه علماء من القراء بمعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، وإن كنت أختار الهمز فيها، لأنه الأصل. [الطبرى: جامع البيان فى تفسير القرآن جـ ٢٢ صـ ٥٠ – ٥١]

١٣٣) الأرضة: الدويبة التى يقال لها: السرفة، والأرض فعلها، فأضيفت إليه. يقال: أرضة الخشبة أرضاً، إذا أكلتها الأرضة....والمنسأة: العصا، لأنه ينسأ بها، أى يطرد ويؤخر، وقرئ بفتح الميم وبتخفيف الهمزة قلباً وحذفاً.

وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك. وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع غريب، وفى صحته نظر.

" قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا موسى بن مسعود، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عطاء، عن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: **" كان نبى الله سليمان عليه السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه، فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا، فيقول: لأى شيء أنت؟ فإن كانت تغرس غرست، وإن كانت لدواء كتبت. فبينما هو يصلى ذات يوم، إذ رأى شجرة بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروب، قال: لأى شيء أنت؟، قالت: لخراب هذا البيت، فقال سليمان عليه السلام: اللهم عمِّ على الجن موتى حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب، فنحتها عصا، فتوكأ عليها حولاً ميتاً، والجن تعمل، فأكلتها الأرضة فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب، ما لبثوا حولاً فى العذاب المهين "** [١٣٤]

وقيل: إن سليمان " قال لملك الموت: إذا أُمِرْتَ بى فأعلمنى، فقال: أُمِرْتُ بك وقد بقيت من عمرك ساعة؛ فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير، ليس له باب، فقام يصلى متكئاً على عصاه، فقبض روحه وهو متكئ عليها، وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى، فلم يكن شيطان ينظر إليه فى صلاته إلا احترق، فمر به شيطان فلم يسمع صوته، ثم رجع فلم يسمع، فنظر، فإذا سليمان قد خر ميتاً، ففتحوا عنه فإذا العصا قد أكلتها الأرضة، فأرادوا أن

---

١٣٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم جـ ٥ صـ ٥٣٦.

يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت منها فى يوم وليلة مقداراً، فحسبوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنة، وكانوا يعملون بين يديه ويحسبونه حياً، فأيقن الناس أنهم لو علموا الغيب لما لبثوا فى العذاب سنة..." [١٣٥]

إن قراءة هذا التصور – بقاء سليمان متكئاً على عصاه لمدة سنة ميتاً – تثير عدة أسئلة:

ألم يعلم أحد فى قصره – وهم يعدون بالعشرات إن لم يكن بالمئات – بموته؟، ألم يقدم أحد له طعامه، أم أنه صام سنة كاملة؟، ألم تفتقده زوجاته، وعددهن كما جاء فى التوراة ثلاثمائة، علاوة على سبعمائة من الإماء؟، من كان يدير شئون الدولة فى هذه السنة؟، ألم يفتقده وزراؤه ومساعدوه فيسألون عنه؟، من الذى كان يقابل سفراء الدول وزوار دولته من مسئولى الدول المجاورة؟، وأخيراً، ألم تتحلل جثته وقد مكث مدة تتحلل فيها أجسام الموتى؟

كل هذه أسئلة توضح أن مسألة مكوثه ميتاً فوق عصاه سنة كاملة ليست إلا أسطورة وخرافة، لا يصدقها العقل، ولا يقرها الواقع، خاصة وأن القرآن الكريم لم يذكر شيئاً مما نسجه الفكر الخرافى من أوهام وترهات، لو قبلها فكر العوام، واستحسنتها طبيعة الطبقات الدنيا – ثقافة –، لأنها تشبع لديهم غريزة حب الغرائب من الأخبار، والولوع بكل ما من شأنه إثارة العواطف، ودغدغة المشاعر، الأمر الذى قد يفيد – على نحو ما – فى قيادة هذه الطبقات، ودفعها نحو قبول ما يعرض عليهم من مبادئ وقيم دينية، تصلح الفرد، وتحافظ على

---

١٣٥) الزمخشرى: الكشاف جـ ٣ صـ ٥٥٧

تماسك المجتمع. غير أن الفلاسفة والمفكرين لا يقبلون هذا النوع من الأساطير، ولهذا جاء القرآن الكريم لإخبار اللاحقين على نحو يتيح لهؤلاء أن يكتشفوا جانباً فكرياً فى هذه الروايات، ففسروا هذه الآية على نحو يتفق مع العقل، ويتسق مع المنطق، ويتناغم مع الواقع، حيث يحررها من هذه التصورات الخرافية؛ فقد قال عبد الوهاب النجار:

" ذُكِرَ أن المفسرين يذكرون فى موته عجائب، ويستدلون بالآية الكريمة: " فلما قضينا عليه الموت...الآية "، ويؤولونها على الوجه الذى يدعو إلى الغرابة..... وكل ما جاء فى هذا الباب أحاديث منكرة.....

" ونحن إذا نظرنا إلى متن الحديث وجدناه مضطرباً، ومخالفاً لسنة الأنبياء، وخصوصاً فى عهد بنى إسرائيل؛ إذ شريعتهم تقضى على كل إسرائيلى أنه يأتى فى العيد، ويقرب القرابين، ويقوم بالطقوس الدينية، وسليمان شريعته التى يتبعها هى التوراة التى جاء بها موسى، وليس له شريعة سواها. وغير معقول أن يكون سليمان — النبى الكريم — هو الذى يخالف الشريعة، ويمكث فى محرابه دون أن يقوم بالمراسيم التى أوجبتها التوراة على كل إسرائيلى، فيغيب عنها فى وقت يقوم بها الرؤساء و السوقة. وإذا فعل يكون قد سن لبنى إسرائيل سُنَّة سيئة تجرئ سواه على مخالفة الشريعة التى أمر الله بنى إسرائيل بحفظها وعدم الإخلال بها. ومعلوم أن اليهود فى عيد الفصح يجب عليهم أن يأكلوا الفطير سبعة أيام، وأن لا يرى الخمر فى جميع تخومهم، فإذا كان سليمان قد مكث ميتاً سنة، أفما كان له زوجة تسأل عنه، وتبعث له بالفطير الواجب فى الفصح، فتعلم أنه ميت، وعنده ألف امرأة؟.....

".... ثم إن سليمان بمقتضى مركز الملك الذى يشغله، عليه مسئولية إقامة العدل بين الناس — كما كان يفعل داود — وقد رأينا داود فى فصل خصومة

الحرث.... وهو أيضاً بمقتضى منصبه الملكى تأتيه الوفود من الملوك، ويطالعه العرفاء والرؤساء بمشكلات نواحيهم، فليس من المعقول أن يكون قد مات وبقى سنة كاملة، لا يعلم بموته أحد، ويهمل إهمالاً لايهمله أحد من السوقة!!! والمسألة تحمل أحد وجهين:

الأول: أن يكون قد مات كما يموت سائر الناس، وبقى موته معمى على الجن دون سواهم من الإنس، ودفن وانتهى أمره، وقام فى الملك ابنه، والجن فى أمكنة نائية كتدمر لا يفترون عن العمل دائبين عليه، خشية أن يعاقبهم سليمان. وبعد مدة — لم يحددها القرآن — علم أحد الجن بموته، إذ رأى عصاه ملقاة على الأرض فرفعها، فإذا الأرضة قد أكلتها، فاستدل من أكل الأرضة إياها على أن سليمان قد تركها على الأرض مدة طويلة. وما كان ليتركها إلا لحدث من موت أو مرض. فتقصى الأمر، فإذا هو قد مات، فأعلم الجن بالأمر، وكانوا لا يعلمونه، كما كانوا يوهمون الناس بأنهم يعلمون الغيب، وأيقنوا أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين.

وعلى هذا الوجه يكون قوله تعالى: " فلما خر "، أى مات، لا (خر) بمعنى وقع على الأرض لعجز العصا عن حفظ توازنه،..... وذلك أن الرجل إذا مات: خر، ومن ذلك قول حكيم بن حزام: بايعت رسول الله ﷺ على ألا أخر إلا قائماً، معناه ألا أموت، لأنه إذا مات فقد خر.

الوجه الثانى: أنه عليه السلام وُجِد فى محرابه، فأدركه الموت وهو جالس متكئ على عصاه، فجاءت الأرضة، واشتغلت بأكل طرف العصا فأكلت بعضه، فانهار الجزء الذى أكلته، فاختل توازنه، فخر، فدل ذلك أهله على موته. وأكل جزء من العصا يكون انهياره سبباً فى اختلال التوازن لا يحتاج إلى زمن

طويل....»[١٣٦]

تستطيع الدولة القوية أن تبسط سلطانها على مرافق الدولة، إذ كلما كانت أجهزة الرقابة واعية، ومدركة لواجبها، وحريصة على القيام بما تفرضه عليها الأنظمة واللوائح، انتظم العمل فى دواوين الدولة المختلفة، واستقام سلوك القائمين على مؤسساتها، فلا تفريط فى العمل، ولا تهاون فى الإنتاج، ولا تكاسل فى أداء المهمات المنوطة بكل فرد من أفراد دولاب العمل فى الدولة، ولا اختلاس لموارد الدولة، فليس هناك ضياع لحقوق الأفراد، ولا إهمال فى أى مجال من مجالات الحياة فى المجتمع، فالكل يعمل لأنه يخاف من العقاب، وكل يخشى أعين رقباء الدولة، حتى لا يقع فى الخطأ فيحاسب حساباً لا يستطيع تحمله، أو يتهم بالبطء فى عمل ما وكل به، حتى لا يجد نفسه أمام من يحاسبه حساباً عسيراً.

كذلك إذا كانت أجهزة الأمن باسطة قوتها فى كل ركن من أركان الدولة، عم الأمن والأمان ربوع الوطن، واستقر الاطمئنان فى نفوس لناس، وأيقنوا أنهم تحت درع يقيهم شر المفسدين، ويحفظهم من اعتداء اللصوص والمفسدين، ويحميهم من سلطان المستغلين، فيطمئنوا على أنفسهم وأهليهم، وعلى أموالهم وممتلكاتهم.

ينعم المجتمع بهذا كله طالما كانت الدولة قوية بأجهزتها الأمنية والرقابية، أما إذا تغلغل الفساد فى أجهزتها، وشعر الناس بضعفها وتهاونها فى مقاومة هذه الظاهرة، وتهاونها فى الأخذ على يد المجرمين والفاسدين، فرأوا بأعينهم رخاوتها وعجزها عن ضبط الأمور، وغض الطرف عن الفساد المستشرى فى جنباتها،

---

١٣٦) النحار: قصص الأنبياء صـ ٣٣٧ - ٣٣٨

وضعف مؤسساتها عن التصدى لهذا الفساد المتغلغل فى مؤسساتها، أو تهاون الأجهزة فى ملاحقة الفاسدين وضبط المجرمين..... إلخ إذا رأت العناصر – وهم العاملون من الأفراد المجهولين فى الدولة، المعبر عنهم بالجن (لأنهم مستترون) أى من غير المعروفين كما سبق بيان ذلك – التى كانت تعمل بجد ونشاط خوفاً من العقاب، تحرروا من الخوف، لأن الرقابة عليهم أصابها الوهن والضعف، فيتكاسلون ويهملون فى عملهم؛ إذ عندما كانت الدولة قوية، باسطة عيونها فى كل مكان، كانت فرائص العاملين فيها مرتعدة، فبذلوا جهداً كبيراً فى العمل ، وظلوا هكذا حتى بعد أن بدأ ضعف الدولة، لأنهم لم يدركوا هذا الضعف إلا عندما عم الفساد أركان الدولة، فندموا على بقائهم فى عذاب هذا العمل هذه المدة الطويلة، لأنهم لو علموا ذلك مسبقاً لما استمروا فى هذا العمل الشاق، وهو العذاب المهين؛ فضعف الدولة بدأ فى أواخر عصر سليمان عليه السلام، ولكن لم يدركه هؤلاء العمال إلا عندما مات سليمان عليه السلام. هذا هو مغزى سرد هذه القصة فى القرآن الكريم كما نفهمه.

أضف إلى ذلك أن هناك جانباً آخر يمكن أن نفهمه من ورود القصة فى القرآن الكريم، ألا وهو بيان أنه لا أحد يعلم الغيب إلا الله، فما كان شائعاً فى المجتمع من أن ما يطلقون عليه " **الجن** " يعلم الغيب ليس صحيحاً بدليل ما أشار إليه القرآن الكريم ضمناً من أن الجن لم يعلم الغيب كما يزعمون، فيجب على المسلمين أن يقلعوا عن هذا الفهم فيدركوا أن علم الغيب عند الله، لم يخبر به أحداً إلا من ارتضى من رسول، يقول تعالى:

﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الجن: ٢٦ – ٢٨]

" أى أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى، الذى هو مصطفى للنبوة خاصة، لا كل مرتضى، وفى هذا إبطال للكرامات، لأن الذى تضاف إليهم، وإن كانوا أولياء مرتضين، فليسوا برسل. وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وإبطال الكهانة والتنجيم، لأن أصحابها أبعد شيء عن الارتضاء وأدخله فى السخط ". [١٣٧]

١٣٧) الزمخشرى: الكشاف جـ ٤ صـ ٦١٩ – ٦٢٠.